رواية

نقوش على جدران الحياة

علي عمار السعيد

دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

نقوش على جدران الحياة

نقوش على جدارن الحياة

لمن لا يهمه الأمر...

رواية

علي عمار السعيد

العنوان: نقوش على جدران الحياة

النوع الأدبي: رواية

المؤلف: علي عمار السعيد (نبذة)

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

أولم تقل العرب : اليأس إحدى الراحتين

يا سائلي عن حال مصر وأهلها
المحت في صمتي مدى استحيائي
أنىّ أمد إلى النجوم يدي
وما فتأت تماطل جوعها أمعائي

علاء جانب

وقفت لحظات أمام حجرة مكتبها, تنفست بأريحية، ورتبت في ذهني أفكاري المتحفزة ،وقلت لنفسي :

لا تسمح لها أن تجعلك تعدل عن قرارك ...

أعلم يقينًا أن لها قوة السحر في التأثير على الآخرين ،لما تمتع به من كاريزما وقوة إقناع ,فضلًا عن كيانها الأنثوي الفريد الذي يفرض سطوته على كل من يجالسها ,أو يناقشها ...

وكان الجدير بها بما تمتلكه من كل هذه الإمكانيات والإنفرادات الأنثوية أن تشغل منصب سفيرة أو وزيرة لكن أن تكون سكرتيرة دور نشر _ وإن كانت دور نشر مشهورة ولها أسمها وباعها _فهو الإجحاف بعينه من وجهة نظري.

طرقت باب مكتبها بهدوء مرغوب، وتنحنحت ,استشعرت الحالة الأولى حين جئت إليها أول مرة أعرض عليها نسخة الرواية , كنت حينها مُمْتَنًّا لكل الظروف التي ساعدتني على الوصول إلى هنا.

قبضت على الأكرة وفتحت الباب ودخلت بطيء الخطى ، أجتذب من مخيلتي ما أود قوله , وكما توقعت كانت تجلس على كرسي مكتبها تحدق في حاسوبها وتدخن سيجارتها المستوردة ،تبعثر في ثقة وخيلاء دخان السيجارة . رغم أنها بلغت الخمسين ربيعا تبدو بفرعها النحيل وقدها الممشوق شابة عشرينية , تهتم بأناقتها كأنثى تفتخر بتكويناتها الفاتنة وتظهر دوما في أحسن صورة ممكنة، ولا تدع أي ظرف سيئ يغص مزاجها

أو يختلس منها ابتسامتها التي تداعب نقرتين في حبتي رمان وتزيد من وضاءة وجهها .

_ أتمنى أن ينال شغلنا إعجابك , قلتها بعدما جلست على الكرسي أمام مكتبها ورحبت بود شفاف للقائي،فرددت بدوري :

_ دائما ما تكونون عند حسن ظن الكتّاب ,سمعتكم لها السبق

ابتسمت في امتنان ,ابتسامة سحرية كفيلة أن تؤم الصدع بين دول حوض النيل وتجعل المياه تنساب في أمان أبدي ،ثم مدت يدها وسحبت من بين مجموعة كتب كانت متراصة في قصد أمامها على المكتب كتابًا وقدمته ليّ.

الكتاب رويتي، النسخة المدققة والمراجعة من قبلهم.

أمسكت بالرواية في زهو الكاتب المغمور الذي يود لو يخبر الجميع بنتاجه ,وابتسامة فخر ترتسم على وجهي , فغلاف الطبعة الثانية لروايتي تصميمه رائع ومعبر بقوة عن محتوى الرواية وجذّاب بالمرة.

رحت أتأمل في الغلاف بإعجاب شديد , هذا الغلاف ما أردته حَقًّا. عمل المصمم على تعديله كثيرًا حتى وصل لتصوري للغلاف , وأنا لا أنكر أني كنت سخيفًا في إصراري على تصور معين للغلاف.

لم يعجبني ولم أرضِ بالنماذج التي عرضت على من قبل المصمم بل ومن قبل بعض الكتاب وكدت أرضخ لتصميم عرضته على صاحبة السيجارة تلك التي أنا الآن في حضرتها ، لكني قاومت وأصررت على تصوري إصرارًا طُفُولِيًّا لا يليق بكاتب مغمور مثلي وبدوره مصمم الأغلفة بالدور جعلني أكتب عن الغلاف قصة أصور فيه شكله وتصميمه حتى يستطيع أن يصل لتصوري فيه فجاء الغلاف كما تصورت.

_ ما رأيك ؟

قطعت تأملي الطفولي للغلاف بذلك السؤال الاعتيادي عند أي شيء يصنعه أحد ويسألك ما رأيك فيما صنع ؟

هززت رأسي علامة إعجابي الشديد , وقلت في امتنان :

_جميل , جميل بحق ما أراه !

نفضت سيجارتها وابتسامة رضا تزيد من سحرها ،وقالت :

_ توليت أمر التعديل بنفسي وأشرفت عليه حتى جاء كما تراه الآن ، تأمله جيدًا حتى ترى صُنعي ،قد يروق لك أو..

_ أو ماذا ؟

_تجد بعض الملاحظات التي تشر علينا

_ لا ،إطلاقًا

_ أشكر لك هذا, وأنا ممتن لك حَقًّا على ذلك

وبعد أن شكرتها تركتها وهي تشغل سيجارة أخرى واستأذنت منها أن أخرج إلى الصالة لأعيد قراءة الرواية , وعلي أريكة ممتدة أمامها منضدة خشبية ذات سطح زجاجي موضوع عليه زهرية صغيرة من الورد جلست وفتحت الرواية وشرعت في قرائتها.

تظل تتألم حتى تتعود على الألم , وتتوجع حتى تألف الوجع.

الفصل الأول

ألقيت بجسدي المتعب على المقعد الخشبي المزروع في الرصيف الموازي لطريق قضبان القطار في محطة رمسيس ,وَدِدْت من التعب لو أني ألقي بجسدي مُتَمَدِّدًا على هذا المقعد أو أسجيه على الرصيف لينال قسطًا أكبر من الراحة ،لكني تحرجت من عامة الناس الذين قد يرمونني بنظرات الاستخفاف والمقت والازدراء،واكتفيت بوضع حقيبتي تحت إبطي واستندت عليها وعمدت برأسي مائلًا على العمود ،القائمة عليه مظلة المقعد

الإرهاق يثقل جفوني.. أشباح أو كتل من الظل تتحرك حولي في المحطة ,كل شيء غير مكتمل الصورة ،ليس واضحًا!

هكذا بدا في عيني كأن بها غشاوة !

أغمضت عيني، ورحت أتنفس في بطء وإرهاق ، وكل تعب الدنيا يحط بجسدي ،كأني أحمل جبلًا راسيًا على بدني, ساقاي بهما تنميل ،وثقل كبير ، كأني عدت توي من ركض في رمال مسافة الاف أميال ، أو هبطت من قمة تل متعرج

ولحظات مرت.. فتحت عيني متوترًا بعدما شعرت بجلوس أحدهم على المقعد جواري ،والتفت إليه ،ولم يكن هذا الأحد غير عجوز عمرت من الدنيا ما يقرب من ضعف عمري ثلاثة أضعاف ،أو يزيد..

نظرت في وجه العجوز وفي هيئتها ,لا أدري أطلت النظر أم قصّرت في وجهها ،واستحالت النظرة تأملًا عميقا

فسرّت في وجهها كل معاني حياتي السفسطائية , حِكت من أنسجته الميتة الجافة وجهًا أخر، لتعبيره عن ملابسات أقداري، ليبقى الشيء الوحيد في نظرتي : السر المكتوم والمخفي وراء تلال من الكفاح والركض في حياة كانت طريقتها وعرة ،غير ممهدة لمرادي فيها ، فرحت أتأمل الوجه في استكشاف لما كانت تخفيه ليّ هذه الحياة في جعبة الأقدار المواربة

وجهًا ضئيلا.. نحيلا ، متيبسًا ...

لكن هذه الآثارات الحياتية التي تشكلت في صورة تجاعيد جافة ... متشابكة، جعلت من الوجه مرتعًا خصبًا لخيالي الشاعري ،وردت في نفسي :

_ إلى مدى تتقارب صورة حياتك مع هيئة هذا الوجه الضئيل ؟

ألا تكون هذا التجاعيد مثالا حيًا لتلك الحواري والشوارع التي سرتْ فيها قدمك ،طلبًا للمستقبل ؟

تحمل هذه الأم في وجهها أخباري ، وتمضي بها في عمرها نحو المستقبل المجهول

وإن كانت هي تتوكأ على درة ناشفة، فأنا نفسي مازلت أبحث عن عصاي التي اتوكأ عليها ,وقد يفني عمري منحي القوة ويرهقني العجز !

إنصعت وراء مخيلتي الشاردة ... في هذه الوجه أتذكر تلك الشوارع والطرقات التي كنت أمضي فيها أطلب عملًا هنا وهناك ... ولا أجد !

أتذكر أول عمل رزقت به بعد هبوطي أرض القاهرة كان ذلك في شتاء يناير، قبل اليوم بأربعة أعوام خلت

أقف أمام محل ملابس بمنطقة العتبة ، أنتظر قدوم صاحب المحل الذي لا يأتي قبل صلاة الظهر بعدما يصحو في تلك الساعة المتأخرة من النهار ,صبيانه وعماله هم من يصحون باكرًا ليفتحوا باب المحل لحاملي رزق صاحب ذلك المتجر

ومع ذهاب نصف النهار أتى صاحب المحل في هيئة يبدو متواضعًا للوهلة الأولى حتى انشرحت لرؤيته , سلمت عليه بعدما اقتربت منه ،صافحته بشغف مرتديًا أملًا وحماسًا مصطنعين!

سلم وصافحني بنفس الحماس ؛ظنني عميلًاوقصدته لأبتاع منه وأترك نقودًا عند ذهابي في درج مكتب متجره ,وما أن خاب ظنه وعرف أني طالب عمل وليس في جيبي ما يعوزني إليه، نظر فّي من أسفلي لأعلى ،وباستياء رد علي طلبي:

_ العذر يا ابني, العمال في المحل بقدر العمل لا أجد لك مكانًا هنا ، ورحلني عن متجره بقوله: ربنا يرزقك

لم تكن هذه المرة الأخيرة التي أعود بعد طلبي بهذه الدعوة ولم يكن هذا هو الموقف الأخير بل تكرر كثيرا حتى منَّ الله علي بالعمل في مقهى شعبي بنفس الحي

وبنفس النظرة المتشككة ، سألني صاحب المقهى وكان شيخًا كبيرًا ذا شارب كث معقوف ودائما ما كان يرتدي جلباب الفلاحين:

_ اشتغلت قهوجي من قبل يابني ؟ وشد نفسا من الشيشة وبعثره في الهواء أمامي وأكمل في تفسير :

_ لا تظن عمل الشاي هكذا حبة مياه بتكبهم على حبة تفل والسلام , الشاي مزاج وصبه صنعة

أجبته بالنفي ،لكني في الحال وعدته أن أكون ذا قابلية للتعلم وفهم الصنعة في وقت يسير.

رضح صاحب القهوة لحماسي وكلفني بالعمل نظيرًا لسبعة عشر جنيها في اليوم مع ارتفاع أجرتي حتى تصل لخمسة وعشرين جنيها حال إثبات كفائتي وتعلم الصنعة ،ووافقت مُضْطَرًّا ومرغما حتى أجد مبيتًا أدراي به نفسي من مخالب ليل الشتاء الذي يدغدغ أعضائي، فأنا جئت إلى القاهرة كلاجئ حرب أهلية متمرد على المقاومة ،أريد المأوى إلى أي ركن يبعدني عن حياتي هناك.

***

لم يكن مثلما يظهر في الأفلام المصرية القديمة ذات الرخص الفني والتفاهة الإجتماعية, نادل القهوة يرتدي ماريالا فوق ملابسه ليحافظ عليها وعلى مظهره

أنه الآن يحمل صينية من الألمنيوم، فوقها الأكواب الزجاجية بها الشاي ساخنًا أو القهوة ... وفي يده الأخرى الشيشة ،دون أدنى توقع أن تنال ملابسه أي أذى أو ضرر من هذا العمل ، بل أنه يحمل نار النرجيلة بنفس الطريقة ولا يعبأ بشيء من ذلك كله !

وهو لا يملك سوى هذه الملابس التي يرتديها ...

يعمل بها ... ويجلس فيها، وينام بها وعليها ؛حتى أصبح رث الثياب، أصيب ببعض النتن ، وتسربت إلى هيئته بوادر العفن

شيء يبدو في غاية الاحتقار!

مثيرًا للشفقة والاشمئزاز معًا!

لكن الزبائن ،تناديه وهو يشرف ويقدم لهم طلباتهم , ويستمر في عمله ,يحاول الاجتهاد قدر المستطاع، قدر المعرفة ..

يصر على التأقلم وألفة المكان والعمل ،يصارع الضجر بكل ما أوتي من صبر واحتمال وينازع الشعور بالإباءة ورغبة الاستحقار لنفسه!

"واحد شاي ... القهوة على الريحة ... غيرّ الحجر ..."

وبدأ ينفخ في جمر ملتهب داخل موقد الحياة ,ممسكا به في صمود المحتاج ,منتهيًا به على رأس الشيشه التي يسحب منها زبائن المقهي ويزيدون في تلهب الجمر أكثر وأكثر ،وينفثون بقاياه هو دخاناكثيفا، يتلاشى مع أقل نسمة هواء ضعيفة ،حتى ينطفئ الجمر ، وتخمد حركته في صراع الحياة مع هبوط الليل

وأنا ذلكم ساعي المقهى الذي يحاول الاجتهاد ، ويتلاشى ويفنى مع الدخان الذي صار يشبهه في التبخر

أرص الحجر تلو الأخر والسبعة عشر جنيها سبعة عشر لا تزيد حتى أنتهى الشهر الثاني من قدومي العمل !

وكان رد صاحب القهوة في طلبي الزيادة بشيء من المّن والفضل حسب معتقده السخيف: _ احسب لوكنت مستأجرًا غرفة وقاعد فيها ،كم كنت ستدفع لها من إيجار نظير ذلك؟

أنت هنا في القهوة قاعد ،نائم، اكل ،شارب بدون تكلفة عليك، المفروض عليك أن تدفع مالاً ،لا تأخذ،ولا تتذمر

حسبك عندما يحين وقت الحساب لأي عمل في أي وقت وأي زمن ,لشك أن صاحب الحق يخشى الجور حتى لو كان محاسبه زاهدًا، لا يخرج من محراب تعبده ، إنه الطمع التي جلبت عليه النفس ، اليس كلنا نطمع في المزيد ، حتى المؤمن يطمع في أن ينال أعلى المنازل في الجنة حتى لو على حساب اقرب الناس اليه.

***

في صباح ذات يوم ٍ كعادتي أقوم مبكرًا أشعل النار تحت برّاد المياه الكبير وأكنس أرضية المقهى وأعيد الكراسي الى هيئتها حيث تجلس ضيوف المقهى، جلست مثل أي ضيف يرتاد هنا ،مقدما لنفسي - بمزاج مفتعل - قدحا من القهوة على الرائحة ,جالسًا في وضع المستبد في ملكوته , أضع أحد قدمي على الاخرى, مسلطا عيني على شاشة التلفاز القابع قدامي ، مستنشقا في استمتاع رائحة القهوة , أمسك بجهاز التحكم لمحطات التلفاز أعبث به ..أغير المحطات في غير قصد.

ثلاث محطات لا أكثر ،لا يذيع هذا التلفاز وكل تلفاز في أي مقهى غيرهم : محطة القرءان في ساعة الصبح حتى تقبل الضيوف فتتغير الى محطة الافلام وتتبادل مع الاخرى محطة الشعبي الرقص والاغاني ومحطة المولد حتى يسدل الستار عن القهوة في الثلث الأخير من الليل

لكني بغير قصد عبثت أصابعي حتى وقفت عن قناة من القنوات التي تزعج من يردون الراحة من واقع عروبتنا ويختبئون في كهوف اليأس

والجهل ويتهربون من الوعي والتفسير الملح على إيجاد منطق لواقع مطروح تحت براثن الإستبداد والقمع!

قناة الاخبار المشهورة عربيا، مذيعة في غاية الأناقة والجمال تعلق على صورة لطفل ذات بشرة تشبه قطعة الفحم بعد حرقه، من جنوب السودان يحمل سلاحًا ناريًا ويضرب به في ساحة الحرب الأهليه التي أوقد شعلتها كبريت الانفصال والفتنة..

غيرت القناة لقناة أخرى مشهورة محليًا : مداخلة من أحد المسؤلين تسأله المذيعة، أقلِ أناقة من سابقتها واكثر تبرجًا وفتنة ' تسأله عبر الهاتف : عن مشاكل النجوع والكفور في الصعيد وقرى الريف النائية، هل يبدو طعم القهوة مرًا لهذا الحد..!

أو منذ متى وأنت تهتم بالأخبار ؟

رد المسؤول بتلقائية وسلاسة وكأنه يقرأ من ورقة أمامه : أن مشاكل النجوع والكفور والقرى النائية ليست المعضلة الاساسية في تنمية جنوب مصر وريفيها، وشرع يلك في حديثه عن الخطط التي تعدها الدولة لتنمية الجنوب والريف والارتقاء بالمستوى المعيشي والحضاري لاهل هذا المناطق ،التي لا تستحق الوجود من وجه نظر أصحاب النظر العلوي.

مرارة القهوة تنعدم إذا ما صنعتها أنت بنفسك ولم تشئها محلاة بحبيبات السكر ، لكن أن ترغم على تجرعها بهذه الطريقة ...

فلا ..

بقرف واستنكار غيرتّ المحطة وأكملت ارتشافي لقدح القهوة مع إحساسي بمرارتها التي صنعتها بنفسي

سلكت يدي في بنطالي الذي أهترئ وكاد يتفتك من على ركبتي، أو هكذا كان،أخرجت كل حصيلتي المالية التي أدخرها من عملي في هذا المكان ،ثلاث مائة جنيه فقط وهذا كل ما جمعته من مال على مدار الايام الكثيرة الماضية.

لم أكن مسرفا لهذا الحد حتى ينفد معظم مالي،أتذكر أن أثمن وجبة اغدقت على نفسي بها هي علبة الكشري ذات الخمسة جنيها وثمن لبعض الملابس التي أشريتها من سوق العتبة العظيم .

أعدت مالي الى جيب سروالي وقمت ألبي نداء العمل

"واحد شاي باللبن"

بدأ يوم جديد في حياة المقهى ...

* * *

كورت العجوز كفيها اليابستين على رأس درتها وسندت ذقنها عليها بعدما سألت :

متى سيأتي القطار ؟

كفيفة لاترى ..لكنها تسأل

وهل نحن البسطاء المهمشين غير مكفوفين وعلينا أن نسأل من نحن؟وبالطبع لن تكون الإجابة غير :بسطاء مهمشين!

التفتت بوجهها يمينا ويسارا وهي تسأل، فعلمت أنها لا ترى..

عجوز عمياء !!

مثلنا

_القطار سيأتي بعد ساعة يا حاجة , أجابتها دون أن أرفع رأسي عن العمود.

شدّتني مخيلتي مجددًا لِمَاضِي في هذا الأرض المزدحمة بغير أهلها (القاهرة) أو كما يسميها أهل الصعيد والأرياف (مَصر)

***

بعد تسعة أشهر نفخًا في جمر الشيش في الموقد وغسل أكواب الشاي والقهوة وغيرهم من أعمال المقهى .. خرجت من المقهى بعد عدة محاولات مني في إقناع صاحب المقهى في رفع أجرة يوميتي فيها، لكنه أبى.. وخيرني بالارتضاء أو ترك العمل والبحث عن أجرة أعلى من أجرتي هنا ؛فاخترت الخيار الأخير لشعوري ببعض المهانة في طرح الخيارات من قبله، كانت الكرامة وعزة نفسي حينها مازالتا بعافيتهما بقايا منهما تترسب في داخلي مثل بقعة تفل تلص في قعر الكوب ، وخرجت من المقهى مثل ثعبان غير مؤذٍ طرد من بيت مهجور بالمكنسة تحت رعاية وعين صاحب البيت , خرجت من المقهى كاف خيري شري كما يقال.

أنسل ثعباني وسط الزحام البشري في حي العتبة الذي لا يكون غير سوق كبير ضخم يباع فيه كل شيء ،أي شيء ، حتى ماء الفرج الرخيص يباع عند أحد الاركان هناك بجوار أعمدة الكباري النتنة

أنك لا تألف فيه شبرًا خالية من غير بضاعة ، أية بضاعة لها ثمن ومريدون.

ودعوني أخذكم بجولة على عجل في هذا السوق الكبير فقد حفظته لكثرة نزولي فيه أيام عملي في المقهى لأبتاع أي شيء نحتاجه للمقهى

هذه المحلات ذات الوجهات الزجايبة التي تطل من كل الأبنية ما هي إلا محلات ملابس فخمة , تعرض داخل الفترينات الشفافة بجاذبية التنسيق وحسن التنظيم بضائعها التي لاترتفع في الجودة والماركة عن تلك التي تعرض في الأكشاك المنتصبة أسفل البنايات تلك ,متحدة أيضًا مع هذه الافرشة التي تراها بجانبك على حواف وجوانب الطرق والشوارع الجانبية فهذه كومة لقمصان وتلك كومة للبناطيل وغيرها للتيشرتات وهكذا هذه الاكشكة تنافس معروضاتها في السوق مع تلك المحلات الفخمة غير أن الثانية تستقبل العميل بهذه الابتسامة المشقوقة من فمي رفيع لوجه حسن يتمايل بصوته حتى يسحب من جيب العميل ما يحتويه من مال ،والأول من الأكشاك والفرش يستقبل العميل ذلك الشيء الذي انتهت صلاحيته كبني أدم ولم يعرف له تصنيف بين المخلوقات ، يستقبل العميل بصوته الخشن الذي يخرج من ماسورة أصدائها دخان الحشيش والمخدرات ،بهيئته المخيفة عارٍ الزراعين وأحيانا عاري الجزع, متدلية على صدره سلسلة مربوط بها مدية حادة شبه مقوسة.

هؤلاء هم بائعو العتبة في المحلات المتنقلة للملابس والأجهزة الكهربائية وشرائط الكاسيت والسديهات للأفلام بأنواعها السينمائي والجنسي المستورد

وبجانب كومات الملابس تجلس تلك المرأة المترهلة, ذات البشرة اللامعة بفعل البدرة وأثر المساحيق تصنع الشاي وتصبه في أقداح زجاجية صدئة

لكن مع قذارة مُعداتها يبدو لشايها مزاج لدى البائعين ,وتمتزج الروائح الكريهة الناتجة عن بول المارة المتشردين والمجاذيب على الجدران بروائح العطور الخام هذا هو سوق العتبة المتجر المتخم بكل البضائع وأشكال البشر المترددين عليه الذين كنت منهم ساعة من العمر.

أكملت سيري حتى وصلت لشارع الأزهر فسلكته من دون قصد
وأن تسير غير محدد القصد كما فعلت هكذا أنا؛ فكل الطرق تكفيك للسير والضلال أو الوصول لأمر لا كنت تتوقعه
من بعيد تبدو مآذن جامع الأزهر شامخة منذ عهد الفاطميين لكن زحام شارع الأزهر يخفي عنك قدسية تلك المآذن، ويواري عن ناظريك شموخها التاريخي.
اقتربت من باب ساحة مسجد الأزهر وكدت أتعثر في كتلة من اللحم ،تلك الجثة المرتمية على عتبته ، امرأة بدينة بثياب بالية هالكة تظهر ساقيها المتورمة وتكشف هذا اللون الأزرق المختلط بالأسود على جلدها تنام مرتمية مثل فيل افترسته الأسود وطعنته بأنيابها لكنها لم تأكله
ترقد المرأة مكشوفة الرأس المشيب على باب ساحة جامع الأزهر العريق،كدليل على إنعدام الرحمة في شبر مبارك بجوار الامام الحسين .
دخلت ساحة المسجد ونزعت حذائي ولبست القبقاب الموضوع أمام الباب وذهبت لميضة المسجد.

توضأت وعدت دالفا لحرم المصلى بنية التقرب إلى عمود القي بجانبه جسدي الهامد المتعب لأستريح بعض الوقت مع التعب ،وقد فعلت وتقربت .

خرجت من المسجد بعدما شفعت ليّ صلاة العصر بالراحة وتذكرت أني نسيت ملابسي في المقهى.

زممت شفتي في سخط وتململ، نظرت لمكان المقهى من مكاني هذا فرأيته بعيدًا ، بعيدًا أن أعود أدراجي ومازال أثر للتعب في جسدي ،لكن لا حيلة غير أن عدت أدراجي ماشيًا في ضجر وتململ..أسب زحام شارع الأزهر وأبصق من حين لأخر على خلقالله. بتعب عدت للمقهى ، وتلقفت ملابسي من على الحائط الذي كان يمسك بملابسي بأصبعين من الصلب ثم بحثت عن كيس بلاستيك ،وما أكثرها التي تكون ملقاة في ركن المقهى بجوار الفحم مادمنا كنا نشتريه , وجدت كيسا دسست فيه ملابسي وخرجت إلي الشارع مرة أخرى ،وكان هو قبلتي ، لكن المرة اتخذت طريقي نحو أي مسجد يقابلني ؛سأبيت في ضيافة الله حتى أجد من أمري قرار.

عليّ أن أعوض ما فات.. أبحث عن بديل , أتحايل حتى أرتضى بشيء ... أي شيءٍ ينسيني الماضي، يزيح عن صدري ذكريات موذية.نكسات الفرد لا يتحلل منها بغير إنتصارات عظيمة ،وكل وسائل الدفاع عن النفس غير كافية ،سيكون الانتحار شيئًا مستحبًا ، لا أحد سينكر عليك هذا ، وكثير منهم قد يشكرك في عذابك الأبدي على فعلتك ،فهل أنت فاعل؟

هذه الأموال لا تشفع ليّ بالعودة ، ما جئت هنا لأعود بهذا الوريقات القليلة من النقود , إنها خيبة الأمل إن عدت بحالي هذا إلى أهلي ،حيث الكنبة التي قد لا يكون أثر رقادي عليها قد جف.

في أحد المساجد العريقة ،ذات الجدران الحجرية الصفراء بت ليلتي ، لا أكاد أذكر كيف انتهيت لقرار عزمي على الاستمرار وعدم مغادرتي تلك الأرض ,لكني كنت أرى أن فكرة العودة لبلدي فكرة مبتذلة ,سخيفة ..غير عملية, ويجب عدم طرحها _مجددًا_ في مثل هذه الظروف السيئة

في الصباح المتأخر أخذت كيسي ورحلت عن المسجد سائحًا في الشوارع أبحث عن عمل حتى لا أضطر صرف ما معي من مال،فالعمل خير وسيلة تبعدك عن الانتحار والراحة.

كنت حريصًا على ألا أدع الظروف تختلس مني المال رُوَيْدًا رويدا, عشش في ذهني هذا المثل الشعبي :خذ من التل يختل .

مضى يومي ولم أحصل على غير التعب ومشقة السير علاوة أني كلفت حصيلة مالي ثمن وجبة أكلتها وبدأت أخذ من الحفنة القليلة.

لم يكن تلا بالمرة!

وأقبل اليوم الثاني وخرجت من المسجد باحثًا عن طرق وشوارع أخرى أسعى فيها طلبًا للعمل , مررت بمقاهٍ, ومحلات ودكاكين كثيرة ، وسألت أصحاب ورش ومخازن عدة .... ولم يكن شيء غير الصد وعدم القبول

بدا الأمر غير طبيعي ، فكيف أمر بهذه المحلات والمطاعم والورش وغيرها من الأماكن المحتمل أن أجد فيه مأربي ولكن لا أجد غير الصد والدعوات بالتسهيل والرفض من معظهم

شعرت بتعنت ، لكن مِن مَن ؟

لا أدري ...

أسبوع يمر وأنا بحاث بالنهار على عمل , لاجئ بالليل في أي مسجد ...

وكم من مساجد أوت جسدي على سجاجيدها الحمراء والخضراء حتى صيرت مُمْتَنًّا لتلك السجاجيد المتربة ذات رائحة الارجل النتنة

راودني هاجس أن هذا أشعار من الغيب ورسائل من المجهول أني الأصح أن أعود لبلدي ، وأن فكرة العودة لهناك ليست مبتذلة كما اعتقد ،لكني كذبت ذلك الإحساس وتحملت جسارة الاستمرار والبقاء هنا

ومرت أيام أخر، وبات الاجتزاء من مالي أمرًا محزنا للغاية !

وفرت السكن واكتفيت بالمبيت مرتميًا بجوار أحد أعمدة المسجد الرخامية أو الحجرية ،لكن لا سبيل أخر لحاجة الطعام غير مالي الذي معي , نعم أني طبقت قانون التوفير عليه بصورة أشدة استفادة لكني أشك أن أفلح في التطبيق إن طال الأمر على هذا النحو ،وطال عمر بطالتي ، كما أنني سئمت لفائف الطعمية والفول ، تلح عليّ معدتي للتغير ، فأنى ألبي إلحاحها وأطعمها من لفائف الكبدة والمشويات .واشرب بعض العصائر ؟

وتقاذفتني الميادين والشوارع ،وسرحت بِي الحارات والمدقات أيامًا وأيام إلى غير دليل , متوسلًا في انكسار وياس ألا يطول ما أنا فيه من سعي وتيه

وعلي غير المتوقع كنت أسلك حارة صامتة ضيقة نتنة ، محفوفة من الجانبين ببيوت متهالكة مشققة الجدران تكاد تنهار ليلا أو تسقط نهارًا على ساكنيها، يتلاعب الهواء بينها كأنه عفريت يركض بينها وراء قطع

الورق والأكياس ,وانتهت بي الحارة إلى شارع مشغول بالحركة وحياة النهار، به مقهى ومحل كشري ومغسلة ملابس ،مررت على المغسلة وتسألت في نفسي, هل أصلح في غسل الملابس وطيها؟

ولم أجب حتى رأيتني قبالة المقهى وأمام رجل يجلس قدامها على طاولة موضوع عليها قدح من الشاي مشروب نصفه ،ألقيت عليه السلام فرد في اقتضاب فترددت أمامه عما نويته ؛هيئته أثارت فيّ الارتياب ، لكني وجدت لساني ينطق :

_ أتعرف أحدًا عنده عمل لي يا حاج ؟

أريد أن أعمل لحاجتي للمال

أشار إلي بيده أن أجلس بعد أن شمل كلي بنظرة متفحصة ، فانصعت احترامًا وقلقا لإشارته

تأملت هيئته التي بدا عليها جسمه المكتظ وكرشه العالي , وعينه الذابلة المخيفة

مال إليّ وسئل كأنه قرأ من حالتي الرثة احتياجي للأكل :

_ منذ متى لم تأكل ؟

ولم يمهلني لأرد وضرب بكفيه ونادى بصوت جهوري عميق_ كأنه يخرج من عمق المحيط ناد أحدهم وأوصاه أن يأتي بصحن مكرونة من المحل وحثه على أن يأتي بالمكرونة سريعًا والا سيوبخه وينال منه أذى من صوته

لم يغب المنادى شاب في العشرينيات أتى بصحن مكرونة شممت رائحتها قبل أن تطبخ كما يشتم الوحش فريسته بخياشمه الجائعة

بصيغة أمرة حثني على الاكل ، فشرعت أكل في نهم بالغ ،حاولت مدارته لكني فشلت كعادتي في الفشل . الجوع ينقص من أدميتك أحيانًا ويقلل من وجاهتك التي قد تريد المحافظة عليها في أحلك الظروف وأشدهاضراوة عليك .

كانت حبات المكرونة لذيذة في حلق جف من الجوع وكاد أن يتيبس، فالتهمت كل حباتها

وما انتهيت من الصحن ومسحت شفتاي- من أثر الاكل- بكمي ,قال لي في توصية بنفس الصوت العميق :

_ ادع للحاجة أم رضا

فدعوت بما فتح الله علي من دعوات للحاجة أم رضا دون أن أسأل من رضا أو من تكون أمه، ولم يكن لدي وقت للدعاء لنفسي لأن مضيفي قال وهو ينهض واقفا فجأةٍ :

_ نشرب الشاي هناك

مشيت بجانبه وأنا لا أعرف هناك , مازلت مرتابا من أمره ، أنا لا أؤلف هؤلاء المكتظين ،وطريقته تثير الشك والريبة في النفس بلا سبب

(من أم رضا هذه؟)

سألت في نفسي وأنا أسير بجانب هذا المثير للقلق والعجب !

شارع يسلمنا لشارع ، وحارة تنبعث من شارع إلى حارة ،وكنا نقطع ونسير وهو لاينبس ببنت شفه وأنا من الريبة لا أبتدئه بالكلام ملتزم الصمت مدعيًا له الوقار،لكنني وددت لو أني انحيت على حجرٍ تلقفته وأخذت أضرب به رأسه ، وأشكره على صحن المكرونة وأرحل

وبعد سير في الحارات وقف أمام بوابة كبيرة مكتوب أعلاها : مطحن بلدي لصاحبه وكيل الدوغري

ظهر الاسم واضحًا جُزْئيًّا من تحت الأتربة المتراكمة لأنه كان عريضا وكبير الخط

وانتظرنا لحظات ثم نادى أحدهم ،خرج رجل في الربيعين ، طويل حد الغرابة، مغبر بتراب أبيض كأنه قناع لايظهر منه غير حجري عينيه ويضع قمامة على فمه، في عينه اليسرى حول ملحوظ

_ ابن بلد ويريد أن يأكل عيش

لم ينطق الطويل الأحول ورفع القمامة عن فمه واكتفى بهز رأسه ,فضرب المكتظ بكتفي وساقني إلى اللباب :

_ أدخل أرينا همتك هنا

اللون الأبيض يغلب على كل شبر في المكان , لوحة بدائية لم يجد ذلك الهاوي غير اللون الأبيض ليعبث في تلوينها فصارت بهذا الشكل البسيط البذيء, ساحة ذات أربع جدران من الطوب الأحمر وسقف مرتفع مسافة خمسة أمتار عن الأرض الأسمنتية التي لم تظهر الا من خلال أثار الاقدام , اتخذت من زوايا السقف عصافير الطير بيوتا عششت فيه

يمينًا ،ثلاث مطاحن كبيرة وأخرى صغيرة ،وعلي اليسار تشوينه ترص فيه أجولة الطحين وفي المنتصف أجولة الحبوب والأشياء التي تطحن

ستة أفراد يشغلون المطحن واحد يقف على الماكينة وأخر يحمل الطحين ويرصه في التشوين ويأتي بهذه الأجولة المتراكمة في منتصف المطحن ويرفعها لمن يقف على الماكينة ليلقي بها بين أسنان المطحن لتخرج من

فمها ترابا تخبزه البشر أو تسفه وتلعقه المواشي بعدما يغبر وجوه من يعمل هنا

انضممت في الحال لجماعة العمل ورأيت همتي وأنا أحمل على ظهري الطحين من فم المطحنة وهو ملتهب التهاب جهنم المسعرة بسبب حرارة الطحن ،أحمله واضعه في موضع التشوين وأعود للماكينة بجوال معبأ يفرغ في حلقها المتسنن لتخرجه ترابًا ساخنا أحمله على ظهري مجددًا في عملية متكررة طيلة النهار

وبعد نهاية اليوم الذي لم أعمل فيها غير شطره الاخير لكني شعرت أني منذ ما ولدت وأنا أعمل هنا في المطحن ؛لما ذوقته من تعب وبذل جهد كبير غير مسبوقين ،فضلا عن إحراق ظهري بسخونة الطحين

وعرفني الاحول الذي أدخلني للمطحن أني سأعمل حمّالًا هنا وأجرتي قدرها خمسون جنيها في اليوم، والمبيت حجرة العمال داخل المطحن

وكانت هذه ثاني المحطات التي مررت بها هنا في القاهرة

* * *

أتدرون صرخات الوليد لحظات مولده ,لم تكن غير إعتراض بليغ على وجوده في هذه المعاناة .. ما تسمونها حياة أيها البلهاء!!

كان الأحول يأتينا بعد الفجر ومع تنفس الصبح بالشروق، يضرب برجله باب الغرفة التي كنا _ نحن عمال المطحن ستة أفراد _ نبيت فيها الليل من أراد منا المبيت ، يصيح فينا بطرقات على الباب أو بيديه ليقظنا من النوم , وإن طالت به اللحظات ولم نستيقظ كان يوخزنا برجله لننتبه وأكثر ما كان يفعل ,فنقوم على إثرها من مرقدنا في كسل وضجر وتأفف.. يلعن كل منا في داخله كل ما في الدنيا مما ينتظره في يومه من تعب ومشقة بعدما يلفظ للأحوال أفظع السباب والشتائم

في أول يوم يقظني فيه هذا الأحول لم يكتف بالطرق على الباب وبيديه والوخز بل عمد لحيلة أخرى ليقظني بها فأنا كنت في نوم سبات, أقرب للإغماء من شدة التعب الذي أصابني من عمل أمس ، أيقظني الأحول بعدما أشمنني حفنة من الطحين ذات رائحة كريهة تعدل في أثرها في الإيذاء والضرر قنبلة هيروشيما النواوية

قمت مضجرًا منزعجا من فعلته السخيفة الحمقاء، وكدت أصرخ فيه لولا أني خشيت أن يقطع عيشي ويطردني من المطحن قبل أن أعمل فيه الا ايامًا وهو رئيسالعمال وله صلاخياته السلطاوية علآطردي وقد يحتج بنحالة جسدي وعدم قدرتي على الشيل والحط

_ أنت شكلك لن تعمر في هذه الشغلانة , قالها وهو يبتسم في سخرية واستهزاء , لكني تقبلت سخريته في غيظ وقمت عازما أن أريه مني غير ما يظن وبدأ يوم العمل الذي لا يكون غير تعذيب للجسد ، وإذا أنا في توكل لأبدأ عملي وإذا بقدمي تذل وتتعثر وأنا أحمل جوالا من الذرة لأرفعه للذي

يقف على المطحنة فوقعت منبكبًا على وجهي ووقع عليّ الجوال هكذا ,ومن حسن حظي لم يلحظ عثرتي أحد من عمال المطحن _ولا هذا الأحول بالذات_ تلفّت حولي ،وقمت في سرعة وعجل وحملت الجوال في عناء ومشقة وسيرت به صوب المطحنة وعدت منحني الظهر قليلا وأنا أحمل حملًا أثخن , أثقل ,أشد حملا وأكثر عناءً..

تحاملت على نفسي وأنا أحمل على ظهري جوال الطحين

تظل تتألم حتى تتعود على الألم , وتتوجع حتى تألف الوجع , وهذا لن يكون بسيطًا أول الأمر في المطحن ،وفي الدنيا كلها ،هكذا قال الأحول حينما سألته عما سألاقي في المطحن، وبالطبع لم يقل في الدنيا كلها ،لأنه جاهل لا يصل وعيه لهذه الفلسفة ، إنما هذا فلسفتي

قضيت يومي أجلد ظهري بحمل الأجولة الملتهبة وأزكم أنفي بتراب الطحين ,والعرق يمتزج مع تراب الطحين على قفاي وشعري ومعظم وجهي في لزوجة مؤذية ,شعور بالإيذاء يسيطر على حتى أنزعه عني بجرة ماء أصبها على جسدي آخر النهار أو أول الليل ،وقد يأخذني النوم دون أن أغتسل من العناء وشدة التعب فأبدو بحالتي مثيرًا للشفقة والتأفف معًا !!

ومكانيات المطحن تروسها أشد بأسًا منا لأنها من حديد وتعمل بالبترول ،أما نحن فبشر وعلينا أن نتحمل

ويأتي مع الفجر الأحول يضرب اللباب برجليه , يقظنا بطرقاته المتوالية المزعجة ، نقوم كسالى , نتناوب على الحماميين القذرين؛ نحسو على وجوهنا ماء من الدلو ،ونمسحه بالخرقة النتة المعلقة على باب الحمام ... نجتمع على الفطار ... ونقوم بعدما نخلع ثياب ونبدلها بأخرى متسخة

وبالية „ نحمل الأجولة على ظهورنا المنحنية ، نعرق ويمتزج عرقنا بتراب الطحين على ظهرنا في لزوجة قاسية ومقززة

نسعل

ننف..

نبصق !

نتصدع بأصوات المطاحن التي ما تنفك ترتطم بجدران أذاننابقسوة وعنف

نتعثر

نلعن ...

نتعب ... حتى يأتي الظهر فنهدأ „ تغلق المطاحن الألية التي تعمل بالبترول لتسريح ،لا لنستريح نحن , فعظامنا أقوى من حديدها

نظل هكذا هذا حتى يدنو المغرب وتحمر الشمس في عيوننا ويكسو السماء الشفق ،فتهدأ رُوَيْدًا أعضاؤنا

وهكذا كان يبدأ يومي وينتهي.. مع العمال في المطحن

وذات يومٍ وكان وقت راحة الظهيرة بعدما أكلنا طعام الغداء ورحنا نتنفس الصعداء , ملقون كأننا مصابي حرب استنزاف مما يحط بنا من تعب وإرهاق ،ملقون في بقعة ذات سقف وَاط ،يظللنا من أشعة الشمس الحارقة, نبدو أشباهًا واحدة بفعل غبار الطحين وجوهننا غبرة ،وشعورنا بيضاء كلها,كنا نجلس جميعًا , عيسى , ومحمود بحر, والعترة , وسيد درويش ,وصبيح , وأنا

سعل عيسى وهو يضجع على جوال شعير , وقال متألما:

_ أوصاني الطبيب ، ترك العمل في المطحن وحذرني من الاستمرار معكم في هذا العمل

رد العترة دون أن ينظر إليه وكان يعبأ جوزته بدائية الصنع بالماء من دلوٍ بجانبه :

_ هكذا الأطباء ،قلقون ... لا تخف , لن تموت

وأخذ يلف غطاء الجوزة المشعب منه طرفي المبسم وقاعدة الحجر , فزاد عيسى :

_ أشعر بضيق التنفس , نفسي يخرج بصعوبة من رِئَتِي يختنق صدري من غبار الدقيق

نفخ العترة في طرف المبسم فخرج ماء الجوزة من طرف الحجر وضيّق عينه اليمنى وقال :

_ الجوزة هي الأخرى نفسها غير سالك وأنا كما ترى لم أتركها أو ألقيها جانبًا ، إنما أحاول إصلاحها لتمارس عملها من جديد , ثم كبس بإبهامه ثقبا في غطاء الجوزة ونفخ في المبسم وتابع :

_ أليس هذا هو الطب , أن تصلح الشيء ليعود لعمله ،لا أن تحذره ليترك عمله ويصير بغير فائدة !

ضحكت كما ضحك الجميع من فلسفة العترة السطحية , فسألت عيسى بدوري :

_ منذ متى وأنت تعمل في المطحن ،أو في هذا العمل يا عيسى ؟

تبنى العترة الرد ببجاجته المعتادة فهو في كل حديث يتولى السيطرة في الردود وإن لم يكن له صلة بالحديث في الإصل :

_ منذ ولدته أمه, ونفخ أخرى في مبسم الجوزة وشرع يكمل بشيء من الهزل:

_ في يوم كنت أحمل جوال من الذرة فوجدته بداخله,صعب عليّ حاله أن ألقيه مع الذرة للطحن وقلت أتركه للدنيا تطحنه هي في مطحنتها بنفسها , وربيناه على الشيّل والحط, في المطحن , حتى طحنته الدنيا كما ترى

سعل عيسى , ووضع العترة التبغ اللازج سودوي اللون في حجر الجوزة بعدما ساواه بأصبعيه وتنقل راكعا يحمل جوزته بين يديه ،والتقط جمرتين من على شعلة الموقد الذي كان أمام بحر،وكان الأخير يتأهب لعمل الشاي لنا، وضع عترة الجمرتين وعاد لمكانه , وسيد درويش كان شاردا كأنه صنم أو جثة محنطة , وعاد صبيح من صلاة الظهر في جماعة المسجد وألقى السلام ولم يرد جهرًا عليه سواي , وألقى بنفسه بجواري وقال موجها الكلام لبحر :

_ ألحقني بشايك يا بحر

وراح بحر يصب الشاي في أقداح زجاجية ويقدمها لنا. ناولني منها قدح فحسوت منه وأثنيت عليه صنعه ,كان له طعم ومذاق لا يعلم سره, والعترة ذلك منسجم مع جوزته , مستمتعًا برفاهية المعدوم بهذه الارتشافات الدخانية التي يصنع بها في محيطنا سحائب هلامية من الدخان ،وراح يكمل بعدما شدّ بطرف شفاه من جوف الجوز وَنَفْثه :

_ عيسى هذا لحم أكتاف المنطقة كلها ببهائمها وطيورها من خيره , وارتشف رشفة شاي ،وزاد :

_ من هو صغير بيلفح طحينهم على ظهره ، وسنه عشر سنين كان صبيًا بارعًا مثيرًا للشفقة

_ الواحد يحمد الله أن عنده صحة ويعمل حتى لو في ساقية، قال صبيح في استشعار نعمة الله ,بينما عيسى يعاني من كر وفر السعال على صدره , ضغط العترة على الجمر في حجر الجوزة وسحب نفسًا منها ,وتوجه بالخطاب لصبيح :

_ ومعدمو الصحة مثل عيسى لهم أن يحمدوا الله أيضًا ؟

كاد بحر أن يعطي العترة قدحا أخر من الشاي لكنه تراجع وقال في سخط :

_ ما هذا الذي تقوله يا عترة ، والله لن أعطيك الشاي بسبب قولك هذا

_ الحمد لله على كل حال يا عم العترة ، قلتها ونظرت لعيسى فوجدته يختلس ارتشاف الشاي إذا فر السعال وسكت عنه ، بينما حاول العترة أن يأخذ قدح الشاي من بحر عنوة ليشربه فمنعه بحر لكنه بعد استعطاف وتوسل تمثيلي من العترة أعطاه القدح .

قال صبيح بنبرته المحرابيه الهادئة:

_الكون ملكوت الله يا بشر

سعل عيسى بعنف أرتج معاه جسده فنظرت إليه في شفقة واستياء ولم يبال به أحد غيري حتى بمجرد النظرة، قلت له بنفسدرجة الإستياء:

_ إذهب للطبيب يشوف حالتك

رد العترة :

_ ألم يقل أنه ذهب للطبيب وأوصاه أن يتركني

لم أهتم برد العترة وظللت مسلط النظر تجاه عيسى وفي يدي قدح الشي كاد أن يبرد فعدلت إليه أكمل إحتساء الشاي وزاد الإستياء أن كدت أفقد لذة الشاي ساخنا

وفضت القعدة وانتهت ساعة الراحة وقمنا كل إلى مهمته ... وأعيد تدوير وتشغيل المطاحن في استنفار طاقاتنا الباقية لبعد القيلولة

كانت ساعة الراحة هذه كجلسات المصارحة والفضفضة تلك التي تعقد في المصحات ومجالس الاستشفاء النفسي . كل منّا كان يبوح بما يكتمه ويواريه في بواطن نفسه. كل كان يبوح بلغته ، لغته التي تعلمها في حياته الماضية أوما عملته الحياة أن يتكلم بها: لغة التجارب ...

لغة المحن

المعاناة

لغة الكد والتعب

لاجئون في أركان الدنيا ،نبحث عن أنفسنا في متاهاتها، ولا ندري هل نجدنا أم نظل تائهين إلى الممات؟

تقرّبت لصبيح وتقرّب إليّ وشعرنا بألفة وود , وعرفت عنه وعرف عني ، لكنه عرف عن القليل وعرفت عنه الكثير , عرفت عنه أنه من نسل أسوان ,جاء أبواه إلى القاهرة منذ كان طفلًا في الخامسة من عمره ، دخل المدرسة وحقق إخفاقا كبيرا وفشلا ذريعا حتى أنه اكتفى عند العام الثالث

للابتدائية ليبدأ بعدها حياته العملية، بدءً من وِرش النجارة صَبِيًّا ,فمساعد ،فصانيعي فاشل لا ترضاه أي ورشة يعمل بها ، لازمه الإخفاق وغياب المهارة ليترك عمله في النجارة متنازلًا في ساعة قرار عن خبرته غير الصالحة فيها، وبدأ يبحث عن عمل آخر يجد فيها نفسه، ولم يجد غير أن يعمل أجيرًا في التكسير والهدم، مستعينا على ذلك بصحته وعافيته, وظل يكسّر ويهدم صحته بمعول الصبر على عملٍ شاق , وفي يوم يئس الصبر منه ،وخابت ضربة المعول فتصيب ساقه بقطع يلزمه الفراش أياما جعلته يستنفد ما جمعه في هذا العمل من مال ! وفي تلك الظروف شاءت قافلة المحن ألا ترحل عنه حتى تأخذ معها في سربها أباه ؛فيجد صبيح نفسه يتيما محتاجًا ،وهو في العشرين من عمره ، ومع أخر يد صافحته في عزاء والده ،رحل يبحث عن عمل عندما شعر بشفاء جرحه قبل أن يندمل,وحاجته للعمل باتت ملحة, وتلقاه نفس المقاول الذي كان يعمل معه , لكنه أراد له الراحة من التكسير حتى لايصيب ساقه الأخرى فلا يعود للعمل؛ فكلفه بغير التكسير ,عمل صبيح عامل تشوين (كما يقال) يحمل الرمال على كتفه والأسمنت والطوب.ظل يحمل ويحمل على كتفه حتى جاءت زوبعة الشباب المتحمس لفعل شيء يعبر به عن ذاته المحبوسة داخل جدران خيبة الأمل، لكن مشيئته ليست ملكه .أو تعبيره كان ينقصه شيء من الوعي ! فجاء التعبير اتهاما وبرهانا على جريرته التي لاقى عقابها الأبدي.

ساءت الأحوال وتوقفت معظم النشاطات على اثر تلك الزوبعة ،واستيقظ صبيح ذات يوم فلم يجد ذلك الشيء الذي كان يحمل الرمال

فيه على كتفه :لتوقف المقاول عن العمل وتحل قافلة المحن ثانية على صبيح ويعتكف في البيت اعتكافا متقطع، سببه البطالة

وبعد أشهر يعاود المقاول العمل ويعاود صبيح معه العمل حتى يترك المقاول المهنة وهنا يجد صبيح باب هذا المطحن مرحبا به ومافتأ صبيح يعمل في هذا المطحن حتى أقتات وازداد وتزوج من أجرته.

عرفت هذا عن صبيح وهو لم يعرف عني غير أني كنت متحفزًا في مقدم شبابي لصنع شيئا يكون لي فخرًا في الحياة , وأني شئت التميز والنجاح وتمردت على نمطية الحياة واعتياديتها.

أم ما ألت إليه حياتي حتى وصلت بي إلى هذه الحال؛ وسبب وجودي ضمن فريق المطحن البائس فلا زال هو ينتظر مني الإجابة الشافية ,مثلي تماما، لكن كيف السبيل لاخباره بقصتي التي لم يصل لحبكتها خيال هوليود

وأصبحت وصبيح صدقين , يُصَبِّرني بيقينه وإيمانه ويعني على الاستفاقة من نوبات اليأس التي كانت تتناوب عليّ من وقت لأخر .أحببت منه ذلك , فصار ليّ بمثابة معالج إدمان ,أو مصحح سلوك ، وقد كنت أدمنت اليأس من كثرة التفكير فيما مضى والخوف مما هو آتٍ ...

هكذا حالي , أفكر فأحزن على ما مضى، وأندم كثيرًا ،وأقلق وأخاف مما هو آتٍ ؛ فينتابني في حينها نوبة اليأس ,لا يردها عني غير أمل أجتذبه من حديث صبيح عن اليقين وحسن الظن بالله .قال ليّ ذات مرة : الأيام دول ,ودوام الحال شيء محال ،والحزن داء القانطين ، وحسن الظن بالله من الشجاعة والإيمان ، أكتسب صبيح لباقته الإيمانية من محافظته على

الفرائض في وقتها , فقد كان صبيح زوّارًا للمسجد عند كل صلاة ، ما أن يسمع حي على الفلاح ؛فيدع كل الدنيا ويهرع إلى الصلاة ,إلى سبب الفلاح والليل الذي كان يبيت معنا في الحجرة كان يقظنا في فجره لنحضر جماعة الصلاة ،وفي غالب الأحيان كنا لانستيقظ وهذا العترة يقول له :

_ دعني ،فقد صليت على النبي.

وذات فجر حاربت الكسل وتغلبت على التعب ،وقمت وذهبت معه للصلاة في المسجد ,ونحن عائدون من المسجد وهذه الدغدغة التي تسببها النسائم البكرية ،جلست على دكة أمام المطحن عاقدا زراعيّ على صدري ,منتشيًا أحلام الفجر النادية من بين أحضان الشقاء ومغالبة الكد

شاركني صبيح الجلسة بعد أخذ الإذن مني، فأحببتت منه ذلك ، صمتُ لبرهة وأنا أنظر لهالة البدر التي غلفت خيالي الجامح , استكن مع هذا الهدوء الذي يصاحب طمأنينة خالدة في ربوع الكون. قطع ذلك الصمت صبيح بسؤاله إياي :

_ تريد السكينة الدائمة ؟

التفت إليه ؛ فأكمل :

_ حافظ على الفجر؛ سترى السكينة الدائمة ،ثم شملنا صمت قبل أن يضيف بما يليق بحسن أخلاقه ولا يليق بتصرفي وسلوكي :

_أنت طيب ،لكن الدنيا غلبتك بهمومها ، أغلبها أنت بصبرك وعزمك على الصواب

مازلت أحدق في هالة القمر ، صبيح يوصيني بالصبر

_ الحياة علمتك ما لم أتعلمه أنا في المدارس يا صبيح ,أنت مدرك حقائق في داخلي لا يعلمها غيري

أبتسم صبيح وقال بانتماء :

_ النبي كان أمي ،اللهم صَلِّ على خير المعلمين

_الدنيا أرهقتني ، قلتها بحرقة ,بشكوى المجوع ,قلتها بألم، وبرضا أحيانًا

_ لا تشتكِ لغير الله ، شكوتك لا يسعها العالم كله ولا يسمعها مهما علا صوتها في داخلك ؛فاكتمها،إن الله سميع عليم

_ ونعم بالله

النفس ضعيفة يا صبيح

_ صَلِّ

تفكرت في كلامه , شيء من الطبيعة يجزم أَنِّي مازلت أحيا رغم أمراض الحياة التي تسربلت نفسي بها . رغم التشوهات التي نقشت على جسد الروح ، رغم اليأس ... الإحباط ... رغم الذنب, شيء داخلي يجزم أن لي كرة أخرى لليقين والإيمان . قلت في سذاجة الطفولة :

_ أنا صليت الفجر لكني أخشى ألا أصلي الظهر

_ الدعاء عند كل صلاة

_ أدعو

_ زد في الدعاء

أيعلم الفجر نيتك فيشهد بصلاحك ؟ هذا الصفاء الذي يكسو الكون، والهدوء المنبسط عليه يشبهك حين تكون حاضرًا بنية الإنسان الذي بداخلك !

كنت أروّد النفس بعصا الاستقامة ,كحال ذلك الراعي يحرص ألا تخرج غنمه عن طريقها المستقيم وألا تشرد .ولكن أنّى لها أن تفعل وقد داهمتها ذئاب كثيرة!

ظروف ساحقة .... وأيام غائلة ... ومشاكل لا تحصى, وتحديات مستمرة .

تبحث النفس عن مهرب , يصيبها الفتور وتجزع.

مهما حرص الراعي والذئاب كثيرة فلابد أن القطيع

سيشرد..!

سيتوه !

ثمة ذئب يشتت استقامتها . يهددها من حين لآخر , يقلق أمنها، يترصدها حتى ينقض عليها.

أستأذني صبيح أن يغفو قليلا قبل أن يأتي رئيس العمال، وراح في نومه، وذهبت أنا في أفكاري حتى أشرقت الشمس وبدأ العمل الحقير

لم يأت الأحول في ميعاده ككل يوم _كعادته _ ليقظنا بزجره إنما تأخر، وتأخر حتى سبقته إلينا الشمس ونزل علينا الضحى كاملًا ،فنهضنا متتابعين في تثاقل ومهل وغسلنا وجوهنا وفطرنا في تباطؤ وخمول وانتظرنا أن يأتينا الأحول فلم يأت، ورحنا نعمل على المطاحن بترتيب ألي منا ونحن نتساءل من وقت لأخر: ماذا يكون من أمر رئيسنا الأحول؟

لم يأتِ!

لماذا تأخر ؟

وأقبل الظهر ونحن مشغولون في مزاولة العمل ,نحمل ونفرغ ونرص ,ونتعب ,ونتساءل :

أين الأحول ؟

أتذكرُ هذا اليوم جيدًا ، علق في ذاكرتي ولا أظن أنني سأنساه يومًا ما ؛فحدثه الجلل كفيل أن ينخر في تلافيف مخي ويلتصق بشدة في جدرانه، جدير أن يترسب في الذاكرة إلى الأبد , وأن تتمثل أحداثه كفيلم يعاد في مسرح حياتي كلما مررت بظروف مشابهة لظروفه!

ولو كنت بعدها أظن أني لن أرى يومًا شبيهًا لهذا اليوم بأحداثه الجسيمة وظروفه القاسية وأخباره المربكة المؤلمة

تَبًّا للذكريات التي ترهقنا!

ذا أنا يسلط عليّ من ظهر هذا اليوم لعنات القدر وسخطاته ،تسقط عليّ كسفًا من العذابات والأوجاع متغلفة في تلك الصدمات المتتابعة

أن تَقْطَع أَشْلَاء ... وتمزق أربا ... وتتفت أجزاءا.. وتتجزل روحك , وتحاول أن تهرب فلا تجد لذلك سبيلا !

يقترب الذئب من الحمى ويعوي بشدة ليربك إستقرارالقطيع

كنت أنزل من على ظهري جوال طحين وارصه في التشوينة جئت به توا من المطحنة فلمحت ضرغاما (رئيس العمال) مقبلًا , كاسف البال ، بادية على وجه أيات الحزن والأسف ، دخل المطحن في إنكسار وانتحى ركنًا غير بعيد عن أنظارنا وجلس على شوال حبوب ,مطرق الرأس, صامتا ، كأنه لايرانا أو كأننا لا نراه وظل على حاله لحظات ولحظات حتى رأه العترة , فذهب إليه متعجبًا ,ودار بينهما حديث مقتضب ,رأيت العترة يلقي

بالجوزة من يده , غاضبا, وراعنا المشهد فأسرعنا جميعا اليهما متسائلين عن الخطب !

وما أقتربنا حتى عاجلنا العترة في نبرة منكسرة أسفة :

_أم رضا ماتت

هال الجميع الخبر،ومثل ريح عاصف اصاب حرث الزرة فاكسرها وترك واحد واقفا شامخا , خروا جميعا واجمين محزنين , منهم من ضم رأسه بيده أسفا وكان بحر, ومنهم من راح يضرب يده بالأخرى وهو عيسى ومهم من كان يتمتم في صوت شبه مسموع وهو صبيح يستغفر ويحوقل ويرجع الامور لله بينما ظللت أنا على حالي , الريح لم تصب شموخي بعد، لكني تذكرت ذلك المكتظ الذي أوصاني منذ شهور بالدعوة لأم رضا ، وها هو الاسم يتكرر فيثير بتكراره على القوم فزعًا ويثير في نفسي تسائلا أكثر من تكون أم رضا , وما حكايتها ؟

ومن أنا هنا!

تذكرت وصية المكتظ بالدعاء لأم رضا لكني تكاسلت عن الدعاء ثانيةً , لا أدري !

_ أكملوا يومكم وبعد اليوم نرى ما سيكون ,قالها الرئيس وهو ينهض وأوصى العترة بمفاتيح المطحن بعدما ينتهي العمل فأطرق العترة وذهب الريس كما عاد غامضا محزونا

بلغ العجب والتسائل مني حدًا مزعجا بعدما رأيت الجميع يتفرق كل منهم الى ركنه صامتين واجمين كأن السنتهم شلت عن الكلام وتابعت صبيح

سؤالي عن أم رضا فلم يزل يوصيني بالتريث والانتظار ومازلت أطرح عليّ وعليه ذات السؤال :من تكون أم رضا تلك ؟

أذن للعصر وأقترب موعد اقامة الصلاة فناديت صبيحا للصلاة وما كان من عادته أن ينتظر ان أناديه للصلاة فهو ما كان يفعل وما كان من عادته أن يتأخر بعد الاذان , لكن هذا المرة تأخر, فناديته :

_ العصر يا شيخ صبيح سيفوتك وقته

سمعت صوته يأتيني من بين غبار الدقيق في المطحنة التي يقف عليها في غير وضوح

ناديته أخرى وأخرى فلم يرد

هل هي اللحظات التي لاتمر ؟

ناديته منذ لحظة فأجابني ،فكيف أناديه اللحظة لا يجيبني ...

لا يرد ...!!

صرخة سيد درويش الساكت طوال الوقت هي ما تجيبني !

أسرعنا جميعا إلى مطحنة صبيح وراء صرخة سيد

تلك اللحظات لن تمر ! أعدك أنها لن تمر وإن مرّت لن تمر بهذه السهولة إطلاقًا !

لك أن تتخيل هذا المشهد , أن تكون ثالث أربعة , لا خامس لهم ؛لأنه..

قد رحل

قد مات!

كيف ؟

منذ لحظات كان مِثلنا، تلقى خبرًا ؛ فوجم وحزن واستغفر. ومن لحظات ناديته فأجبني واللحظة نحن واجمون محزنون عليه

تلقين خبره !

كيف؟

لن تمر اللحظات بسهولة !

كفنه الشفق وتوارى جسمانه في التراب كما توارت الشمس خلف ستار الليل القاتم, لكن من المحزن أن للشمس عودة أخرى لكن صبيح لا عودة له !

قد صار صبيح ذكرى , مثل أشياء كثيرة مرت بك وصارت ذكرى . تبدو الحياة مسلسل من الذكريات المؤلمة ،السخيفة

لماذا يخشى الناس ما يسمى (الزهايمر) ؟!

عدت من جنازة صبيح وأنا أشعر بجزع بدأ ينبت في داخلي ،راعني موته لا شك وأفجعني رحيله وبدت غرة الليل قاتمة توحي بالقلق والخوف، والاندهاش ..

إن تشيّع أَنْسَانَا كنت تحس معه بشيء من الطمأنينة وتدعه التراب في تلك الساعة من آخر النهار وأول الليل ، تراهم وهم يلبسونه ثياب الآخرة في حراسة تلك القناديل المدلاة من إيدي المشيعين والنجوم المتبعثرة في انسجام في كف السماء الفسيح ,عند هذا الحد من التعقل وفهم الحياة الخادعة تشعر أنك بحاجة إلى من يدثر كيانك الذي صار عاريًا من أمن الحياة !

تسعى قدمي في رتابة وجزع ، ومنذ أمد لم تذرف عيني تلك الدموع التي جفت ونضبت لكن معينها نبع بها في هذا الموقف ,كأن صمامه نزع عنه

لا أدري أكان حزنا على فراق صبيح أم حزنا على فراق الأمن في الحياة؟

دموع حارة ، غزيرة ... ينتفض معها جسدي وأحس برعشة تداعب اركاني ،أكفكف دموعي بطرف كم الثياب وامضي في سيري وهذا الجزع يزيد ويتسع

بلا إنصاف رأيت الحياة مجحفة ؛ بلا يقين رأيتها مظلمة , مجحفة لأنها سلبت من صبيح ، كل شيء حتى عمره

لم تعطه غير حفنة من الصبر عاش عليها !

ومات بها !

ومجحفة لأنها تركتي أعيش فيها

أسير وذكريات صبيح تحضرني ، صورته تبدو أشد وضوحًا وملامحه ذات البشرة السوداء والثغر النحيل والشعر المجعد وقامته القصيرة وابتسامته التي تحكي عن إصدار صبره , لم أعرفه ولم أصادقه غير فترة قصيرة لا تتجاوز الأشهر المعدوات لكنها فترة كانت كفيلة أن تصبح ذكرى خالدة, مثل كل الذكريات التي تترسب في عمقي

لمحت من بعيد وأنا في أول شارع المطحن لمحت جمعًا وسمعت ضجيجا ...

فغيرت مساري ,رأيت أني بحاجة للابتعاد عن أي بشر

النأي عن أي إزعاج

مللت الفوضى ... وتعبت من الزحام, وتأففت من الأصوات ,ليس لديه رغبة البقاء في حضور النزاعات , بل إني لا أرغب الآن في أي شيء له صلة بتلك الحياة

ورحت أمشي في شارع ينتهي بساحة فارغة (خرابة)

وصلت إليها وجلست على حجر متعبا مرهقا , اشتاق لأن أبكي كثيرًا

أو..

أموت !

ورحت في نوبة بكاء شديدة اكتوت معها عيني احمرارًا وارتجف لها القلب ، أحاول تفريغ شحنات الوجع المخزنة منذ سنين في هذه الخرابة

وفعلت ...

لكني لم أسترح !

وحشة تفوت في إرجائي فتزيد من شدة البكاء

وحشة وحنين غلفا داخلي ،وما أدري ما سببهما ؟!

عَلَّام أبكي ؟

لا أظن أن كل هذه الدموع تهدرها جفوني حزنًا على رحيل صبيح وما كان عهدي به يستحق كل هذه الدموع

ثمة حزن أكبر ... رحيل أصعب ...

الوحشة مع الإحساس والشعور بالضياع هاجت ثائرتهما بموت صبيح فكانت هذه الدموع وذلك البكاء ,وليت الليل مضى عند هذا الحد !

اجتهدت في التهوين والتخفيف على نفسي ، أحاول تهدئتي . يسكت عني البكاء لكن الحزن باقٍ, مؤججة ناره داخلي , يزيده شعوري بالوحشة..

والحنين

تعبث بمخيلتي أشياء تثير فيّ الحزن وتقربني من الجنون

أهلي الذين أنا في بعد عنهم وإن كنا في وطن واحد

حياتي وإخفاقاتي في الماضي وحاضري غير المناسب ومستقبلي المجهول

طموحاتي وأحلامي التي تبتعد عني كلما طعنت في السن

أعض على شفتي من الأسف وعيناي محمرتان كأنهما قطعتين جمر من أثر البكاء .

أجوب في داخلي وأنا جالس على الحجر دافنًا رأسي بين كفي ،عَلَّنِي أجد ما يلهيني عن هذا الذي أنا فيه أو يخفف عن وطأته , دليل إلى بعض الراحة أو جزء من السكينة , ما شئت الراحة الكاملة لأني لن أجدها هكذا !

وليتني لم أحاول البحث !

لم يكن دليلا لبعض الراحة كما ظننت. بل كان سكينًا حادا ,حَادًّا جِدًّا ... يقطع ما تبقى من شراين هدئتي ,أو يذبحني دون لطفة أو رحمة

كنت أحفظ ومازلت عن ظهر قلب الرقم (رقم هاتفها)

أخرجت تلك القطعة المعدنية الخربة وطلبت الرقم ،فلم يكن شيء؛ قد حظر رقمي من الاتصال

(موضة الحظر) ... الطريقة الأسهل لاستشاظ الغيظ

أكرر الاتصال في يقين أني أعبث بنفسي بفعلتي هذه!

حزن ثم وحشة !

ثم حزن ووحشة... ثم حزن ووحشة وخوف، ثم حزن ووحشة وخوف وغيظ!

يبدو الأمر بسيطا هينا إن كنت لم تحاول يوما أن تتأسف لعدوك وتتوسل إليه أن ينهي عداوته ويصاحبك. تفعل هذا اضطرارًا ... لاحتياجك لهذه الصحبة, تراك سخيفا لكنك مُصِرًّا على سخافتك , علي أن تنال شيء تيقنت عدم حصولك عليه

منذ عام لم أحاول الاتصال بها حفاظا على ما تبقى من كرامتي

واليوم ...

أهدرت ما تبقى ...

بلافائدة !

رفض عدوك التوسل

رد على طلبك بمنتهى الإذلال لك!

وهي لم تكن ...

عدوا

بل كانت ذات يوما أقرب الناس إلى , كانت خطيبتي قبل ثلاثة أعوام مضت أرسلت لها رسالة لتفك الحظر

لترد ...

تسمعمني واسمعها

تذهب عني هذه الوحشة

تماديت في إذلال نفسي

لكنها ...

ترد برسالة :

(بعد إذنك أنا خطبت ,لا يصح ما تفعله)

ترد بما يزيد فيّ الوحشة ...!

بما يوجعني أكثر ...

ضحكتك بعدما أعدت قراءة الرسالة بعيني مرات , رسالة قصيرة موجزة لكني أعدت قراءتها كأني لم أفهمها من أول مرة

وضحكت

ضحكة طويلة ... ضحكة ساخرة.. , مصطنعة

ضحكة ميتة ....

ضحكت من الصدمة ,

ثم ..

أجهشت

فبكيت , بَكَّاءَا متقطع لكنه استمر كثيرا ,وتكلمت حينها بكلمات أتحرّج من ذكرها , كلمات أغلب الظن ألا يقولها عاقل .أو على الأقل مدرك !

عندما تحين الصدمة يتأرجح حالنا بين الصبر والجزع

لماذا خلقت الدموع إذن ؟

هل يكفينا الشعور بالألم فحسب !

لم أفلح في الارتقاء للجنون ، أن أعيش هذه النعمة التي يفتقدها هؤلاء المعذبون بعقولهم

هل جرّبت يومًا أن تكون مجنونًا ؟

تسمع أن أحد المت به مصيبة فتنازل عقله عن الصمود أمامها فصار في تعداد هؤلاء المنعمين بغياب العقل

أولئك الذين أراد لهم القدر الراحة والرحمة من عذاب وألم هول المصيبة

وأنا حاولت بعد تلك المصيبة ... اللطمة القاسية, الرسالة الصارمة , لكني لم أفلح !

لم أفلح في الارتقاء للجنون

لماذا تتوسل لعدوك حتى يلطمك مثل هذه اللطمة؟!

كلما أشعر بالوحشة ،وأمُل من الوحدة، وأعاني الوجع ... كنت أتذكرها , أثب إليها مثل ذلك الطفل الذي يجري نحو أمه عندما يغضبه أقرانه وهو يلعب معهم في الشارع, لكنها ردتني ودفعتني عنها بعنف ...بقسوة متناهية

أخبروني كيف يكون حال ذلكم الطفل حين ترده أمه بهذا العنف والقسوة ؟

إنها القسوة التي لا تحتمل

احتياجي لها كان احتياجًا مزمنا لا يشفى حتى تشملني بودها , وتحتويني بالإنصات لفضفضتي لها..

انفصلت عنها لكني لم أرغب أن تخرج من حياتي ولا هي رغبت أن أخرج من حياتها , بقي التواصل عبر المكالمات أو الرسائل حبلًا متواصلا بيننا، وإن كان مهترئا

كانت تمضي الأسابيع, الشهور ,فاتصل بها فترد وقليلا ما كانت ترد , ولكن متى ردت كانت تسمعني وتحتوي ضعفي بنشوة المنتصر الراغب في أن ينال هزيمته

تسمعني حتى أرضي نفسي من حديثها , تتطلف حينًا وتعنف أحيانا لكنها كانت تريد ما أريد , أن تشعر أني مازلت أذكرها

تعلم أن اتصالي بها يعني أني بحاجة لمن يخفف عني ضرر ألم بي أو أني أمر بعارض مزعج في الحياة , وغالبًا ما كان هذا العارض شعور بالوحدة , فتأخذني الوحشة للاتصال بها كما فعلت الآن

لم أدرِ أن ما كنت أفعله ليس إلا حماقات سترد عليّ بعنف مُؤْذٍ ....!

الوحشة والحزن والاحتياج وأنت وحيد ليس لك أحد سواك
لم أقرأ رواية مائة يوم من العزلة ،فهم يقولون إن بطل الرواية قاوم بحرفة الجنون والموت فهل ليّ أفلح مثله؟
عزلتي مؤلمة ومضنية لأني أظنني من صنعتها بنفسي !لا أدري كيف وصلت لشارع المطحن , ولا أعلم كيف مشيت !
أتذكر أني ما تحملت المكوث في الخرابة وأخذت أتمشى ليس إلا رغبة في الهروب والمضي إلى أي سبيل... ووجدتني أمام بوابة المطحن العملاقة ، تصدني عن التلف
وراءها شرعت أنادي واطرق ولا أحد يجيب : يا عم العترة يا سيد ويا بحر كررت الندءات ولم يجبني أحد
تأكدت أن لا أحد بالداخل فالبوابة مغلقة من الخارج , جلست هامدا على الدكة التي تقبع أمام المطحن ولم أدر أني في ساعة متأخرة من الليل حتى مر أحدهم وسألته عن الساعة فنظر في معصمه وأخبرني أنها بلغت الواحدة صباحًا.

مكثت على الدكة ساعة من الوقت ومازال أمر الرسالة يستحوذ عليّ ،يزيدني وجعًا على وجع !

أخذني مقامي على الدكة _تذكرة_ بهذا الفجر الذي جلست مع صبيح معه على هذه الدكة فأدمعت قليلا وأجهشت ثم تسلل الخيال إلى ساعة رحيله ثم ...

الضجيج.!

انتفضت بكل عنف الدنيا وقفت كأني أتطلع لشيء هناك من بعيد وقلت في نفسي:الضجيج كان هنا أمام المطحن , الضجيج الذي رغبت في الابتعاد عنه كان هنا , والبوابة سكرت ولا أحد من العمال في المطحن وبعد لحظات شعرت بالتعب فجلست هامدا نادما.

يمر الوقت بطيئا وكأن الليل ممسك به من عروته يجره للخلف

كنت أشعر بثقل الوقت كما شعرت بالجوع وَقْتئِذٍ , شعرت بجوع حاد , أمعائي يئست مماطلة الجوع فأخذت تطلب حقها من الزاد وَأَنَّى لي في هذا الوقت وتلك الحال من سد جوعي الذي بات يستفد من طاقتي المعدمة مخزونها , وهل يزيد الحزن من الجوع وتصير شهوة الطعام مع الحزن جامحة ؟؟

على قدر ما كنت من حزن كنت جائعا , فكرت أن أسعى لأي محل ابتاع منه ما يهدأ من صراخ البطن ,لكن في أي وقت هذا وبأي وسيلة سأفعل : الوقت متأخر وليس في جيبي أي مال!

دورت حول نفسي في توتر وقلق روحت عند البوابة واعدت النداء بعبثية المنفعل

هل يكون العمال ذهبوا ولن يعودوا ؟

أخذوا معهم حاجياتي ... حقيبتي ومالي , أجرة تسعة أشهر في المقهى وخمسة هنا في المطحن , عشرة الإف جنيها مضوا ورحلوا على سنة الرحيل كالعمر والحلم وكل شيء يرحل !!

ترى من أخذهم : سيد أم العترة أم الأحول ؟

ألوم نفسي أني ابتعدت عن الضجيج,كان قرارًا طُفُولِيًّا خاطئ ...!

والليل يشعرني أكثر ببطئه المستفز, أنهار مع تلك الأفكار التي تدور بي في محيط الظلام

عندما يجتمع ليل على حزن ووحشة وقلق وجوع وخوف , هل يأتي النهار بجديد ؟

كانت ليلة قاسية !

ارتميت على الدكة في يأس وكل أحداث اليوم تتداعى على فكري بلا هوادة , موت صبيح , الرسالة المزعجة, غياب العمال وشعوري بفقدان مالي ...

ومازال الجوع نُبَاح في معدتي

أحسبك أنك لن تشعر بما شعرت به لَيْلَتئِذٍ

اَلضَّيَاع...

هذا الشيء المسبب للحزن ...والندم ... دائما

ضَيَاع أي شيء : قد يصيبك الضياع في مالٍ أو وقت أو شيء كنت تحبه وحتى نفسك

وهذا ما كنت أشعره

لا أدري كيف نمت؛ فالنوم مثل حقنة المخدر تشعر بأولها فقط ولا تدري متى نفد مفعولها إليك , ولكني أدري كيف صحوت . فتحت عيني على صبي نصف مجذوب يعبث بعصا في أصابع رجلي وقد نزع عن قدمي الحذاء , لم تكن الشمس قد أثخنت في النهار وكان المارة قليلين في الشارع .

اعتدلت جالسًا أمسح بيدي على وجهي بشيء من العنف حتى أزيل آثار النوم من على جفوني المتراخية ,وأن كنت جائعا لمزيد من النوم والراحة ولكن كيف استزيدوأناقد اتخذت من الشارع مخدعا !

اتكأت على الدكة في محاولة مقاومة مني للكسل الذي تحالف مع التعب عليّ في ساعة الصبح ,وللنوم لذة لا تقاوم في هذه الساعة من الصبح يزيد منها الكسل والإرهاق ,وأنا بِدَاعٍ التحضر وخشية الحرج احرم نفسي من تلك الذة , أقاوم حتى أبدو إنسانا شيئا ما , أنه التصنع والوهم..

وقعت عيني على جوزة العترةوهي ملقاة على جانبها وقد كسر باطنها ,أطالت فيه النظر , دليل أخر يؤكد هاجس ذهاب العمال واحتمال ضَيَاع مالي

زاد ظهور المارة في الشارع فاستوقفت شَابًّا وسألته عَمَّا كان البارحة من ضجيج هنا ,فأخبرني أن أخوة أم رضا كانوا في خناق وشجار بالكلام مع عمال المطحن بسبب طرد الآخرين من عملهم , انتابني زهول وزاد فِي القلق فلم أنبس بكلمة وخرجت من ذهولي فلم أر الشاب ويبدو أنه رحل وهو في عجب من أمري . مضيت أسأل عن أخوة أم رضا أو أحد منهم فأرشدني

مسن ذو وقار بشيبته ولحيته البيضاء أن أقصد الحاج (سمير العطفاوي) وينادي (بأبو شهاب)وهو أكبرهم سِنًّا ومقاما

_ هناك في شارع الدوغري أسأل هناك ألف من يدلك على بيته

تلقفت منه الإرشاد وأنا مولي له ظهري في عجالة من أمري قاصدًا الشارع المقصود وكأن بلهفتي الأمل في إخماد نار مخاوفي من ضَيَاع المال

أمام منزل دلت واجهته على فخامته وثراء ساكنيه وقفت بهيئتي مثل نبتة ذابلة منحي ساقها من الجفاف تقبع تحت حائط بستان ضخم يزعجها إحساس بالتضاؤل والحقارة

قاومت ذلك الإحساس وناديت بصوت حاولت تهدئته فخرج عليّ فتى أعلن رعونته وهو يشملني بنظرة تحقير ونقص , وقال وهو بذات النظرة وبشيء من الارتياب :

_ من تريد ؟

_ الحاج سمير

أنتظر ,قالها وانسل للداخل ثم عاد وأذن لي بالدخول خلفه ,فتبعته

سمح للنبتة الذابلة أن ترى ما وراء الحائط... إن تعرف حجم ذبولها ..إن تشعر أكثر بحقارتها

ممر ذات أرضية من الرخام ينتهي بسلم وينبعث من طرفيه أبواب ذات اليمين وذات الشمال انعطفت وراء الفتى ذات اليمين لأجد نفسي في بهو ذات براح ومتسع يزدان سقفه بهذه الديكورات المعمارية من الجبس والأضواء السحرية وعلي جوانبه أرائك من الأثاث الفخم وحوض سمك بجواره شلال صناعي يبعث في المكان روعة من روائع الطبيعة المصطنعة

تأملت المشهد وأنا أنتظر واقفًا من يره هذا البيت دون أن يمر بهذا الشارع الحقير وتلك المنطقة ... لا يظن أن قبوع هذا البيت بهذا الشارع وبتلك المنطقة وعلي العكس لا يظن الأمر

خرج عليّ من أحد مداخل الصالون ذو الشارب المنمق والشعر المصفوف والبنية متوسطة البناء تظهر وسامته أن تلاشى هذا العبوس الذي ظهر به أمامي

_ أنت العامل الغائب ،قالها وهو يجلس على أريكة من ارائكه , لم استوعب من الوهلة الأولى سؤاله, فزاد :

_واحد اسمه العترة أخذ باقي حسابك وأجرتك في المصنع لأنك كنت غائب أمس

_ كان ليّ جاحات في حجرة المبيت أين أجدها , قلتها في استجداء

_ كل الحاجات أخذها زملاؤك , تجدهامع العترة

هزني وقع مثير للقلق وقلت له في أسف وحزن

_لا أعرف بيتا للعترة

نظر إلى بإشفاق وضم تحت رسغه وسادة وسألني في شيء من الترحم والعطف

_ متى تعمل معهم في المطحن

_ من أربعة أشهر أو يزيد

كرهت هذه اللحظة , كم أضيق وأغضب من الشفقة , أشعر أني قليل ,ليته لم يشفق عليّ , ليته طردني خيرًا من أن يلقي إلي هذه النظرة الاشفاقية

نادى بصوت عالي يا شهاب فأقبل الفتى الأرعن فأمره أن يأخذني إلى حيث يكون رئيس العمال (الأحول)

وأخبرني أنه هو الذي بيده أن يوصلني للعترة

هل كان للنبتة أن تأمل شيئا من هذا البستان ؟

بدا لها الأمر أنها سيزيد زبولها وسترغم أكثر على الانحناء

وراء شهاب ركبت الخنفسة النارية (الفيسبة) خرج من شارع الدوغري وانعطف في حارة لا يمهد فيه شبر حتى تكاد تتعثر في الحفر

وحارة تتفرع من حارة راوغ شهاب تعرجاتها بخنفسته حتى كاد ان يدهش طفل كان يركض من أمام امه التي هرولت وراؤه لتلبسه البنطالون

أمام شخص يجلس على كرسي خشب قدام بيت صغير لا معالم له غير بابه الخشبي الموارب ،يمرر شفرة حادة على خده تمسح ذلك الدهان الابيض ومعه شعيرات متفرقات كان هو الاحول رئيس العمال ويقف أمامه طفل في الخامسة من عمره اشعث الشعر يمسك بقطعة زجاجية مثلثة الشكل مرآاة مجتزءة من ضلفة دولاب أو أي شيئ مثله ينظر فيه الاحول وهو يحلق ذقنه

_ كنت روحت لشعبان الحمرجي كان جز لك هذا الشعر

نفخ الاحول خده ومرر الشفرة بعدما رد على شهاب _الذي انزلني واستدار بخنفسته تأهبًا للرحيل_ وقال :

_ خربتوها وقعدتم , ورحل شهاب وهو يلعن المنقطقة التي يسكن بها الاحول

انتهى الاحول من حلاقته ونادى بخشونة زوجته فخرجت من الباب الموارب أمراة صغيرة تبدو ذات حسن لولا هذه العاهات العشوائية التي تنتجها معيشة هؤلاء الشعبين

أخذ منها دلو الماء وغسل وجه ،ثم أخذني وجلسنا في ركن بجوار البيت .دار الحوار عما حدث بعد تشيع صبيح من وفات أم رضا وإصرار أخواتها على إخراج العمال وغلق المطحن فقد حلفوا جميعا على ذلك وما أن ماتت أم رضا فبروا حلفهم , قصدًا منهم لهدم المطحن وبناء عقار مكانه لذلك كان العمال في قلق وتخوف من موت أم الرضا ولكن تخوفهم انتهى من ليلة موتها وقد جاءوا أخوات أم رضا وأمروهم بالرحيل , وسألته عن حقيبتي وحسابي فأخبرني , أن العترة تكفل بهم وتزعم أنه سيلقاني بهم

_أين يكون العترة ؟ , سألته

_ في بيت ابن عمه , قالها ببساطة كأني أعرف بيت ابن عم العترة أو أني زوّار له

في استجداء سألت

_ تعرف مكانه

_ أعرف

عندما تجد الأمل لإيجاد ورد شيء ضاع منك لا سبيل غير الركض وراء هذا الأمل , شددت على يد الأحول واستجديته أن نذهب لبيت ابن عم العترة فوافق في ضجر , وبصفير حاد أقبل علينا فأر من فأر الحواري والشوارع الشعبية

وركبنا التكتوك معًا وأمر السائق يمضي الى منطقة العزبة , ومن الحواري والشوارع الضيقة الى طريق مشغول بالسيارات الى حواري مثل تلك الحواري وقف التكتوك أما بيت عتيق غارق بين بيوت تعلوه في البناء والتشيد ,يأكل نصفه هذا الشباك الخشبي المتهالك ذات السياج الحديدي وذلك الباب زو الضلفة الواحدة . وقف الأحول بجانب الشباك القريب من الأرض ونادى يا عليش فطلت عجوز طاعن في السن من الشباك وردت :

_ من تنادي عليه غير موجود

ثم أغلقت الشباك كأنها فتاة عذراء تستحي منا

قطب الأحول جبينه فظهر حوله بوضوح ونظر إلى في تعجب وكرر النداء , مرة ومرة

ليأتي صوت الفتاة العجوز أو العجوز الفتاة ساخطا على نداء الأحول :

_ قلت لك ليس هنا , عد إليه في المغربية يكون عاد من سرمحته

_ والعترة يا حاجة

_ ادع الله أن تصيبهم غارة تأخذهم الاثنين معًا

وأوصت الأحول ألا ينادي ثانية ويرحل, شككت لأول مرة في العترة بسب رد العجوز _ أن يضني عليّ مالي

يركب الأحول التكتوك ويأمرني بالركوب لنعود إلى منطقته , وفركبت كأني أنسحب من جولة لا أريد خسارتها

كيف أترك طرف الحبل الذي سيوصلني إلى مالي ؟

كيف اترك هذا البيت بعدما عرفت أن ليس للعترة مأوى غيره بعد طرده مع العمال من المصنع

يجري التكتوك بعيدًا عن منزل ابن عم العترة ,وتعطلت ذبذبة اركاني مع هذه الرجرجة التي تعانيه إطارات التكوك بسبب التعرجات وهذا الصوت الصادر من أسفل مقعد التكتوك يسكن تجاويف اللاواعي

(لف بينا يا دنيا..)

عد إلى الوراء وتقهقره لن يسبقك المتأخرون كثيرًا , شعوري بالندم سياط لاذعة تجلد ظهر إيماني بالقدر ... وكلما تذكرت قولت:

ليتني لم ابتعدت ورحت ناحية المطحن ليلتها

عد إلى الوراء وتقهقره لن يسبقك المتأخرون كثيرا

نزل الأحول من التكتوك وأخبرني أنه يقصد أحد هنا ثم أوصى السائق أن يأخذني حيث أشاء

لم أشأ أن ينزل الأحول ويذهب ولم أشأ أن أذهب

لكن مشيئة غير مئتي جعلت الأحول يرتكب حماقته , نعم حماقته تركني وليس معي أجرة التوصيلة وليس لي جهة أقصدها, وهذه المشيئة جعلت التكتوك يمضي بي وأن في غيظٍ لا أدري كيف التصرف !

ماذا أفعل ؟

_ أين اتجه يا (أبو الشباب), سألني سائق التوكتوك وقد قطع مسافة بعيدة عن نزول الأحول

_ ها.. أمشِ على طول

مشى التوكتوك على طول حتى انتهى بشارع فأمرته أن يسلكه فسلكه

أفكر كيف أخلُص من هذه الورطة التي وقعت فيها.. وأعلن مرات الأحول معالم الشارع بتعرجاته وبيوته العتيقة ذات الوجهات المتشققة ذكرتني أني مررت به وإني أعرف ما ينتهي إليه الشارع

_ الحارة القادمة يا برنس يمين ,قلتها وأن أتطلع لمراوغة صاحب التكتوك أنعطف التوكتوك ليسلك الحارة المشار إليه دون علم من السائق أني أخبئ في نهايتها ما سيغضبه انتهت الحارة إلى هذه .الخرابة التي بانت تلالها المشيدة من الرطش ونفايات البيوت من الأوراق والأخشاب والقمامة

_ تقدم ناحية هذا الشارع , أشرت له أن يقطع الخرابة صوب أول شارع ينبعث من ساحة الخرابة ووصل إلى حيث شئت ونزلت من التكتوك وبمكر لم أعهده على نفسه أخبرته أن ينتظرني وأخبرته أنّي لن أتأخر . سلكت الشارع حتى رأيت دقاق ضيق يمر بين البيوت منتهى بشارع رئيسي وأغلب ظني أن صاحب التكتوك سيظل منتظرين حتى أصل لنهاية الدقاق وأدلف للشارع الرئيسي مَفَرًّا منه ،وقد فعلت وأنا أقطع الممر راكضًا لا أنظر ورائي البتة .

اعتذرت لصاحب التكتوك _عن خدعتي_ أمام نفسي وأنا أمضي في الشارع الرئيسي لاهثا إلى مهرب فتنامى إلى مسامعي هذا الصوت المتكرر في ذلك التوقيت ,إشعار لهؤلاء المقصدين أن هلم إلى رحاب جمعكم .

تصدح المكابرات والمآذن الشامخة فوق ضجيج الدنيا بهذه الإشعارات الإذاعية (يا أيها الذين أمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع)

انتبهت لحالي وتريثت قليلا لكني جزعت أمام نفسي ؛ هذا الاشعار الصادح بتجليات أسبوعية يخبرني أنها ساعة الجمعة. اليوم هو الجمعة

ما هذا الحياة التي تعيشها دون تذكرة لأيامها!

تغافلت أو تلاهيت أو تشاغلت .... لكن على أية حال لم تعد تهتم _ أو تدرك _ أيامك التي تعيشاها !

وكم من جمع جاءت عليك ولم تعرف بقدومها حتى تتفاجأ بساعتها !

وكم من جمع مضت ومعها ولت أيام وأسابيع وشهور بل وسنون وأنت في غفلة.. أو في تشاغل من أمرك ! حتى صار التوقيت غير مهم .

أن لا تشعر بالوقت أو لاتهتم به ...إنه التيه والعجز المبكر ..أو مرحلة متقدمة من اليأس !

استندت على عمود بين المصلين في مسجد , لا طاقة لي حتى اركع ركعتي قدوم المسجد , اتخذت من ساعة الجمعة ساعة راحة من ذلك الركض الذي أجبرت عليه

صعد الخطيب المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم شرع يخطب عن أكل مال الناس بالباطل,فدوعوت الله أن يسامحني علي فعلتي تجاه سائق التكتوك وأن يأجره الله خيرا من أجرتي , ثم انحرف الخطيب إلى الحديث عن سنن الوضوء ومستحباته ووجدتني أني نسيت المضمضة ولكني في تكاسل وتعب فقلت : لا بأس صح وضوئي

وانتهت الخطبة وصلاة الجمعة وخرجت مشبعا بغذاء الروح إن صحت جمعتي لكني وجدتني بحاجة إلى غذاء الجسد

نحافة جسدي لا تساعدني على تحمل الجوع أكثر من نصف يوم فكيف وأنا لم ألقن معدتي شيئا من مثل هذا التوقيت من ظهر أمس , أجر قدمي مما حل بي من نصب , أراني وسط هذه الخليقة , بين البشر هذه الساعة بهذه الحال زائد على الدنيا أميل بنفسي وأرجحها لترى سقوطها الساحق ؛لا لتناجي أملًا مرابطا على حدود السراب إنما لتعترف أن لحظها العاثر سبق على تلك الأحداث .

_عد إليه في الصباح

إحساس ما يستجلب داخلي من هذه الجملة . كيف يعود ما قد ضاع ؟ في الصباح ؟

لا أحد يخبرني أن لي الحق في تفسير مبهمات القدر , فقد صَعْب علي تقديري للحياة !

الأمل.. هناك وراء باب موصد سأطرقه (في الصباح) وسأظل رهين الخوف والقلق وكل مشاعر الضعف حتى ...

... أو يرحمني اليأس

نعم , فاليأس جرعة لابأس بها للراحة من معاناة الأمل .

إذا استلذت الدنيابعذاباتك وهي تقطرك بقطرات من الأمل فاخذ لها تلك الجرعة من اليأس وعش مُسْتَرِيحًا بلا أمل

أو حتى لا تسقط وتفشل في المقاومة وتجدك تحت أنقاض التعب ، أسترح قليلا ثم أعد المحاولة

تسربت من بين الجماهير من المارة والواقفين في محلاتهم والركبين سيارتهم ودرجاتهم وانتحيت ركنا بجوار سور لمدرسة تقبع يمين الشارع هذا ,جلست لأسترح ...لأتنفس قليلًا بمهل

ألجوع ينخرفي طاقتي فلم أعد أتحمل , جلست أو ارتميت قاعدا مستسلما لهواجس مزعجة هاجمت عليّ كأنها كانت تنتظرني هنا.. لتزيد فِي الألم

ماذا لو لم أرد إلى نفسي مالي ؟

إنها الحسرة والندم ! ....

لا يحالفني القدر في في مقابلة العترة ,أذهب عند تلك العجوز فتزجرني ألا أعود ثانية , يمضي العترة ولا يعود ... أو لا تزجرني العجوز ويعود العترة لكنه ينكر مالي , أفرغ حقيبتي ولا أجد حصيلة أتعابي فيها ويدعي العطرة وهو يحلف بكل الأيمانات الكاذبة أنه ما مسها ولا اقترب منها ....

احتمالات واردة ...

عهدي بالعترة ؟

لا أدري ....

لا أحد يؤتمن في زمن الجوع والطمع

حال الناس يتغير كطقس شهر(أمشير)

ردوا الأمانات إلى أهلها.

أوصانا الدين بهذا

تمنيت في نفسي أن أكون ممن يحفظ لهم أماناتهم وترد عليهم .لكن الهواجس والأفكار المضطربة حامت حول رأسي,أرى العترة أنه سيطمع في مبلغ ليس بالقليل ,إن شاء أخذه ولن يمنعه لا ضمير ولا دين ,يجعل من

مالي مصروفًا إِضَافِيًّا يشتري أفخر أنواع التبغ ليشربه ويتبخر عرقي سحبًا دخانية ينفثها العترة في انتشاء وزهو واستمتاع ,لكن يأتي هاجس ذليل على استحياء يجر ورائه شيئًا من الأمل , سأقابل العترة واجده محتفظا بمالي وسيدخل داخل البيت ويأتيني بالحقيبة ويردها بما فيها بالمال وسأشكره حينها على أمانته , لكن أنّى لهذا أن يكون وفي نفسي رصيد كافٍ لليأس من كل شيء.

لا يعتبر سوء الظن اعوجاج في التفكير ولا خطأ في التربية ,لأنه قد يكون النجاة في كثير من الأحيان.

عهدي بالعترة أربعة أشهر , نعم كنا نجلس عند الظهيرة في الغداء وكما يقال في الأمثال : أكلنا عيش وملح , لكن المبلغ أظنه أكبر من ثمن وجبة في المطعم الهندي في مدينة العاصمة الجديدة ,وكم ممن خانوا العيش والملح وأنكروه!

قلة ....

هؤلاء الذين يحفظون العشرة ولا يخونون العيش والملح

هم في هذا الزمن مثل فاكهة المانج في سوق الفقراء نادرون لحد العدم

اتسعت لعبة الأفكار وانحرف التفكر للماضي , تذكرت حينها من باب العشرة شخصًا كان ذات عهد صديقًا ,وكنا متلازمين في كل شيء , التعليم ,, اللعب ... العبث الجد الهزل ....

شيء وظله لن نختلف غير في الصورة التي كنا نحاول تقريبها ,صديقان مترافقين دوما

وكأن هذا الشخص عندما رآني وحدي دون صديقي وسألني :

أين الفردة الأخرى ؟

كان يضرب مثلا عن فرضية تلازمنا , حتمية الرفقة ...

رغم بذاءة وحقارة المثل لكنه كان تعبيرًا دقيقا لصحبة مترافقة.كان لا يعقل وجود أحدنا دون الأخر

صداقة أبدية لا يفرقها شيء , ضرب بها المثل

يزداد التفكير انحرافا ويمضي أَكْثَرَا في الماضي يذكرني في أسف مواقف جربني بها صديقي مواقف كانت جديرة ألا تدعني بهذه الظروف وحيدا

مواقف لا أحبذ أن أذكرها هنا لأني لا أحب أن أستفيض في شيء منها .

هناك تجارب يجب نواريها بتراب النسيان أن نردم عليها

لكن قد أجد في هذا التعبير تقريبًا لما كان من هذه المواقف , أني أنحيت ظهري لصديقي ليعبر إلى أشياء كان يريدها وما أنا وصل مددت له يدي فلم أجده ووجدتني أعاني الغدر ,أعاني النذالة ...عرفت من هذا الذي كان صديقًا محض الأنانية بكامل تفاصيلها. أفظع الخيانات تلك التي تأتي من أناس لاتتوقع أن تصدر عنهم . إنني أتأفف فعلًا أن أخوض أو اذكر عهدي بذلك الشخص وليتني أستطيع أن أمحو ذكريات عهده! مر من أمامي بائع مرطبات (آيس كريم) كان يضرب على الطبل فكانت ضرباته بمثابة تنبيهات تحذير ألا أخوض في ذكر الماضي فبترت سلسلة الأفكار التي انحرفت للماضي

قمت مستندا على السور وجررت قدمي وراء بائع المرطبات الذي وقف واجتمع حوله صبية يمدون إليه أيدهم فيردها بقراطيس ذات قبعات مثلجة يلعقونها بألسنتهم ,وبطني بهذا المشهد تتضوع جوعا

عصرت ذهني لا أتذكر الناحية التي يقبع بها بيت الأحول ونجحت بعد تعب في التخمين والسير في حارات متشابهة وتساؤلات للمارة أن أصل حيث بيت (الأحول) ناديت عليه فخرجت تلك الحسناء فسألته عنه فأجابت أنه بالخارج

وليتها ظهري لكني تذكرت تلك القطعة العاجية التي دائما ما تكون معطلة فلا أحملها معي إلا نادرًا فسألتها :

_ ممكن تعطيني رقم تليفونه ؟

أربعة أشهر كان الأحول رئيسا لمهنتي ولم أحفظ له رقم هاتفه , تليفوني خرب وأنا لم أرد أن استبدله بخير منه لكن ليس هذا عذرا في تجاهلي رقم تليفون رئيسي في العمل أو حتى زميل المهنة , هي لا شك حماقة من حماقات اعترفت بها مؤخرًا

دست ذات الحسن الملوث بأدران الفقر والجهل يدها في جيب عباءتها وأخرجت هاتف يعمل بالعبث على وجه (تليفون باللمس) مددت يدها بالتليفون وقالت في اقتضاب :

_ مسجل أبو العيال

بعناء بالضغط على أزرار تليفوني_ كتبت رقم الاحول وها أنا اضغط حفظ فتفرغ بطارية الهاتف

منعني الخجل أن أطلب منها ورقة وقلم لنقل الرقم؛ مدة لا بأس بها أنقل الرقم وفي النهاية اطلب ورقة وقلم , هل أخبرها بحالة هاتفي اللعين ؟كلا ... مازلت أشعر بشيء من وجاهتي .كما هذا الذي أريده أظنهم لا يستعملونه أو من الأشياء التي لا قيمة لها في حياتهم

رددت إليها تليفونها وشكرتها في أدب وهي كانت تنظر إليّ مستغربة لا أدري لما !...

لما اخرج من الحارة حتى قابلني الأحول وبادرني :

_ ما هذا الذي فعلته مع التكتوك ؟

فلاهيته عن سؤاله وأمر التكتوك بسؤاله عن العطرة

أعطاني خريطة وصفية لبيت (ابن عم العترة)

تحاملت مرغمًا وَمُضْطَرًّا أن أقصد البيت المقصود ، ليس للراحة وقت عندي ما دامت نقو سيرًا على قدمي أجرها في عناء وإرهاق شديدين قطعت في ساعة تلك الطريق والشوارع والحواري التي جرى فيها التكتوك أول النهار وأمام البيت والشباك كان مغلقًا اقتربت وناديت فلم ترد العجوز ولا غيرها كررت النداء مرات فجاء صوت العجوز يقترب تدريجيا كأنها في آخر البيت وتتقدم ناحية اللباب ترد :

_ لم يرجع وادع الله ألا يرجع

_ متى يرجع يا حاجة

لم ترد فكررت فلم ترد فقلت إنها عادت للداخل , على أول الشارع وقفت أنتظر أترقب عودة العطرة أن عاد العترة سيعود لا شك من هنا ليس لبيت سبيل غير هذا الشارع وليس للشارع مدخل غير هذا لذلك وقفت انتظر في أوله

ومرت دقائق طوال وأنا أنتظر أقف وأتحرك في الشارع وأعود واقف متظاهر بأني من المارة حتى طال الانتظار وانتهى النهار ولملمت الشمس بقايه وتوارت وراء المغيب تاركة بقعة شفقية محا أثارها غلاف الليل الذي

قطعت تلك المصابيح البيضاء والصفراء التي أشعلت في شارع العترة والوقوف والقعود أمام الشارع ورحت أما بيت العترة وناديت عليه لكن العجوز لم ترد وقفت أمام البيت اقطع جزء من الانتظار استدت بظهري على حائط مقابل لبيت ابن عم العترة واغمضت عيني تعبأ وزهقا أسفل الظهر يكاد يجعلني ابكي ألمًا ؛ هذا السير والوقوف كفيلان أن يضعاني في شبه شلل , ألا حق على العجوز أن ترد عليّ وتفتح لي باب الضيافة فاسترح في داخله , كيف تفعل وهي ساخطة من العترة ! فلا اكرام لضيفه

أنتبهت وتقدمت ناحية الشباك أنظر في تأمل لما تحته ، تبغ لزج محروق وقطع صغيرة بجحم حبات الذرة لفحم ومياه عفنة مدلقة أسفل الشباك قطبت جبيني وتسألت في شك : العترة في البيت ؟

فناديت وزدت في النداء بصوت عال فلم يرد أحد فطرقت على الباب طرق المستغيث

عدت للوراء مستندأ على الحائط عازمًا تكرار النداء والطرق بعد قليل موسوس لنفسي : لن أترك العترة يستغفلني بحيلة العجوز بردها عليّ

نظرات الشك والارتياب يشرقني بها كل من يمر أمامي ويراني واقفا على وضعي هذا وكم من النظرات التي رميت بها وأنا انتظر في أول الشارع لكني رغم حدتها لم أعبئ بها عدتت أكرر النداء والطرق وفعلت ذلك مرات دون جدوى والليل أخذ في التقدم حتى انتصف وقته, لم يعد يمر بالشارع الا قلة قليلة تمريني بحدية النظر شفافة هذا التساؤل غير المنطوق : لماذا يقف هذا الغريب هنا ؟/غريب أنا بهيئتي المنتظرة ووقوفي في ترقب ها هنا وأنا مجبر على تقبل النظرات الحادة لشخصي وأنا أنتظر

قضيت الليل قاعدًا وواقفا على قدمي , هبط ضغط الدم سكن رأسي صداع وانفصل نصفي التحتاني عن النصف الأعلى أسفل الظهر ملتهب وقدماي ثقيلتان لا تطيقان الأرض ,والإعياء يشمل روحي وجسدي وأشعر أن مخزون طاقتي لن يمهلني حتى الظهر وسأقع هامدا من طولي

أرتبك الشفق وخرجت الشمس من ورائه ساخنة وأنا أنادي العترة للمرة الرابعة في أول اليوم حتى سمعت وقع أقدام تقترب خلف الباب ورأيت الباب يفتح , إحساسي بالأمل وقتها دلف بي إلى داخل البيت أقعدني مع العطرة وهو يتأسف مني ويستأذني ثم يأتي بحقيبتي ويرد إلى مالي , سأذهب لأقرب مكان يعد طعاما

سأبحث عن مكان أستريح فيها وأنام طويلا , أداوي هذا الصداع المتزايد , سأنزع عني لباس الخوف والقلق وسأفرح ...

لكن العجوز تردني بعدما فتحت الباب وصعدت درجات عتبته الحجرية وهي تقول :

_ قولت لك من عشية العترة لم يرجع

قالتها ببساطة وهدوء جعلاني أذهل ... كأنها قذفتني بهالة سحرية فثبتتني مكاني لا أتحرك

رأيتها تمضي في وهن الشيخوخة ،ولكن الشيخوخة وحدها لأتسبب هذا الوهن والضعب .تحررت من ذهولي وخرجت من تلك الهالة السحرية وجريت أسألها

_ أين العترة ؟

_ يا ابني العترة من ساعة ما جاء عشية الخميس ومشي هو وفايد لم يأتوا , ثم بضعف قالت: لكن سيأتون يا ابني ومعهم القطرة ,عيني ما عدت أشرف بها يابني خالص

كانت تنقل خطواتها وهي تمشي بجوار الحائط في بطء وتمهل ممزوج بضعف

تركتها ترحل , صدق كلامها له دلائل في نبرتها . الأطفال لا يكذبون ومثلهم الشيوخ لأنهم يعودون لطفولتهم بهذه الشيخوخة المتعبة

عدت ووقفت أمام البيت لم أتخذ قرارا فيما أمضي ...

ومن البيت المجاور لبيت العترة خرج صبي متحمس نشيط ودلق ماء الشيشة وبقايا التبغ المحروق تحت شباك العجوز وعاد إلى بيتهم

خرجت من الشارع منهوكًا أبحث عن مكان اسجي فيه جسدي وأنال ولو قسطا بسيطا من النوم والراحة

تخيلت لو الخرابة قريبة لذهبت إليها , تحت كوبري سيكون مناسبًا , شجرة تكون نسيها معول الزمن ارتمي تحتها أو استند على جزعها لن يضر ... مسجد أو زاوية لا شك سيكون الأفضل ....

انتهيت من الشارع ورأيتني انحرف يمينًا ويسارا حتى وصلت لطريق عام مشغول بالسيارات والتكاتك مضيت إلى غير قصد

أتأمل في الوجوه السائرة كأني أبحث عن ملامح تعرفني أو أعرفها , وأنا أنكر على نفسي ما أنا فيه ,أمشي في وهن.

تزل قدمي وأتخبط من التعب كأني أمشي في طريق غير ممهدة ,وَفِعْلِيًّا لم أعد أتحمل . أسأل عن جامع قريب , أرمي ببصري إلى كل ناحية لعله يعود بما أمشي في سبيله ,

تراجعت للخلف وأنا أتراجع شعرت بضربة قاسية , عنيفة .... ضربت ساقي من الخلف وظهري ضربة شعرت معها بالألم ... بالوجع ,بالغيظ ... شيء ما صدمني ,ما هو ؟

لا أدري.. وعلي إثر الصدمة وقعت مُكِبًّا على وجهي فزاد الوجع أكثر , لم يكن المشهد واضحًا لي ,كانت الرؤية في عيني ضبابية , ثم ذهبت الرؤية تماما ولم أر ولم أحس بشيء البتة

فتحت عيني وأنا أشعر برأسي ثقيلا تحسستها فإذا بضمادة تلف جبيني وتظلل عيني لتحجب عن الرؤية قليلا , حركت أطرافي فاستجابت للحركة غير ساقي الأيسر الذي بدا ثقيلا جدا رفعت جزعي على عارضة السرير فانزعجت من رؤية ساقي مرتفعة على وسادة وهي ملفوفة بالجبس. تراجعت بجزعي في استسلام بعدما تفحصت آليا حالتي أنتظر لم يأتي ليخبرني بتفاصيل حالتي , أخشى أن يكون بي غير الظاهر الآن أمامي وإن كنت لا أشعر بشيء . ضمادة وجبس وهذا الخرطوم الممتد من أنبوب فرغ من محتواه الكميائي نظرت حولي فرأيت من هم أمثالي وغيرهم بعثت إليهم عيني في استجداء ورجاء مبتور وكل مشغول في نفسه.

هؤلاء مرضى ومصابون وأولئك أقرباؤهم وزويهم وأنا لا قريب لي ولا زوى , مر طبيب بنظارته وخلفه الممرضة

_ لم تأكل منذ متى ؟ سألني وهو يتفحص حالتي يخبرك الطبيب أنك كنت بحاجة إلى الطعام ... التغذية :لذلك أمدوك بالسائل المقطر عبر خرطوم شفاف , يتخذ من عروقك منافذ يتسرب من خلالها إلى أنحاء جسدك يعيد فيك الطاقة ويشعرك بالحياة.

لم أتحمل الصدمة وتلقفني الإغماء فغبت ساعة من الوقت لا أدري فيها شيء , وأغلب الظن أن تكتكوك هو ما صدمني وأهل الخير حملوني _لا شك _ في تكتوك مثله أوفي سيارة وأتوا بي إلى هنا لأستريح ,أليس هذا ما كنت لأطلبه

الراحة ... إن اسجي جسدي وأريح قدمي

سرير في مستشفى قصر العيني يستقبلك في اعتياد كما استقبل ويستقبل مواطنين غيرك , ويأخذك شعور بالامتنان لا تدري أيكون لمن ؟

لهؤلاء الذين حملوك إلى هنا , أم لهذا الطبيب الذي رمقك بابتسامة وهو يخبرك أنك بخير ,أم للممرضة التي نزعت خرطوم المحلول بعدما تشرب به جسدك وأعاد فيك الحياة , أم لهذا المرأة السمينة التي وضعت بجانبك على السرير قطعة من الجبن ومثلها من المربى ورغيف عيش التهمتهم في انتشاء وجزع ...

لمن يكون الامتنان ؟

أم يكون لهذا الوطن المتمثل في السرير والمحلول ؟

إحساس جعلني أتأمل الذين يسكنون الحجرة معي أيكونون بهذه الحالة اليائسة مثلي ويغتاب متاعبهم القدر ويشعرون بالامتنان كما أشعر أم أنهم يتضجرون ويسخطون ؟

صبيح كان يوصيني بالرضا. ما أوجعني ؛تَبًّا للذكريات وإن كانت طيبة !
وجوه الذين في الحجرة معي تتلون بالرضا والسخط معًا . هكذا كنت أراهم أو هكذا هم يكونون فعلا . الحياة مليئة بالتعب ومجرد ساعة من الراحة تشعر معها بالامتنان لا أدري يكون رضا أم يأس !
غص شعوري بالامتنان _ولو كان كاذبا_ بتذكري مالي الذي في يد العترة , لكن ما حيلتي ,وليس لي أن أقوم وأعود لبيت العجوز ؛ ساقي الأيسر مكسور ولا عزاء لي غير هذه الراحة التي يعدها آخرون تعبًا ومحنة . صحيح معافى لا يحب أن يكون هنا ، متعب جائع لا مبيت له ولا مأوى _وإن ضاع ماله _ لا بأس بهذا المقام أن يستريح فيه , أن يعده منحة . تتفاوت النعم بقدر احتياجنا لها .
ودع الزائرون مرضاهم ولم يودعني أحد غير هذه الشمس التي سحبت أذيالها من وراء تلك المنافذ الزجاجية ليحل الليل محلها في غرابة المكان التي لم أظن يومًا أني سألفه .
مرت أيام وقد نزعت الممرضة الضمادة من على جبيني فقد كان الجرح يسيرًا، ألائم واندمل سريعًا. لم يكن غير هذه اللفافة الجبسية التي لففت بها ساقي .
_لن تنزع حتى يجبر كسر ساقي , من ثلاثة أسابيع لشهر , ولكن إن شئت الرحيل والخروج فلك هذا , أخبرتني بهذا وهي تعطيني حبات دوائية بيد كان الجدير بِي أن تصافح صحبتي في مستقبلنا
كيف أخبر الممرضة أني في حيرة من أمري, أنّى لي أن اخرج وأسير هكذا مكسورا؟

وأنّى لي أن امكث حتى يكتمل شفائي ومالي رهن الضياع ؟!

_ لا تقلق , ستحل بإذن الله

قالها لي إسلام وهو يجلس على حافة مؤخرة سريري وأنا أجلس رافعًا ساقي المكسور فوق الوسادة , شاب متوسط الطول ,أنيق في ملبسه وهيئته , يصغرني قليلا, أتى بعدي بثلاثة أيام , تجاور سريره بسريري فتعرفنا ورحنا نتكلم حتى بلغ الكلام منا عن شؤونا وأحوالنا فسب وشتم بدوره العترة وعدّه مختلسا وأكلا للحرام , فهيج في داخلي ثيران القلق والخوف

صارت الصحبة بيننا اليفنا ومؤنسنا حجر الشفاء نتجاذب أطراف الحديث مادام بقاؤنا هنا

وها أنا ذات مرة أحمل نفسي على السير مستندًا على الحائط حتى خرجت إلى الممر وانتهيت إلى مقعد عند نهايته ، ومددت عليه ساقي المكسور معلنًا في احتياج: إن لا مكان لغيري عليه , تترامى إليّ السلامات ونظرات الود من الزائرين والمرضى شبه المعافين .

وتغيّر المقام أية من آيات تحسين المزاج فكررتها كل يوم رغم تحذير الممرضة ورفقاء الحجرة من محاولة المشي على ساقي المكسور

_ عاش البطل ما جاء إلى هنا . ثم جلس القرفصاء في مقابلة المقعد بعد أن رفع عني الحرج

_ زهقت من السرير ,قلت أغير الوضع ،قلتها لإسلام وأن اتنفس الصعداء من مشقة المحاولة

_ من يرى مصائب الناس تهون عليه مصيبته

_ الحمد لله

_مات بالأمس مريض بالحجرة التي بجوارنا , كان شَابًّا بكتْ عليه أمه كثيرًا

_ ولم يبك عليه أبوه؟

أطرق مَلِيًّا ثم رفع رأسه قائلاً في تأثر :

_ودعت صدقين العام الماضي

حاولت التظاهر بالتعاطف لكني أخفقت ورفعت ساقي السليم على المقعد بجوار المكسورة , وقال إسلام:

_ هل مات لك صديق ؟

_لا أعرف

تعجب وسئل

_ كيف ؟

_ هل هذا المستشفى كبير حتى يحتوي كل مرضى مصر ؟

_ كلنا مرضى وليس كلنا في المستشفى

ثم عاد يسأل :

هل مات لك صديق ؟

لم يلح بالسؤال وأنت لا تجد تعريفًا حَقِيقِيًّا للموت ،ولم تصل لمفهوم خالص للصداقة

كِلا الأمرين خدعت في حقيقتهم

فالموت ليس خروج الروح من الجسد ,فقد يكون الجسد مات مرات ومازالتْ تسكنه الروح!

ألم تجرب يومًا الموت في اليأس؟

حاسيسة الموت قريبة عند هذا الشعور ... وكفى! وليست الصداقة في الرفقة والصحبة وإن طالت ولا إخلاص لها!

_ .....

فكيف تعرف أنه مات لك صديق أم لا؟

صمتُ , وحاولت أن أدس أصبعي من بين فتحة بين الجبس وساقي من أسفل عند أصابع قدمي لأهرش في كاحلي ،وما استطعت.. فعضضت شفتي من الغيظ. لعمري أن لهرشة واحدة تريحني! فهرشت عبثا على الجبس , وقلت :

_ الحياة مريضة مثلُنا يا إسلام

_ ستأتي الممرضة وتزجرك على فعلتك تلك

فقلت في لامبالاة :

_ أنا أعْطفُ على نفسي منها

_ لكن هذا واجبها، ودورها هنا

_ أن تزجرني ؟

فضحك وقال :

_ لا , أن تمنعك عن المخاطرة ،وأن تحميك من أذى يصيب مرضك بتفاقم

_ وماذا يفعل الطبيب إذن ؟

_ الممرضات أهون على المرضى أحيانا من الأطباء

تمر حالات من أمامنا فارميها بنظرات الشفقة والعطف متناسيًا أني جدير بشفقة وعطف أشد ,لحالتي وكسري

وليس أقصد هذا الكسر الذي أَلَم بساقي ويجبر بقطعة شاش تلف وتغطى بالجبس ,إنما الكسر النفسي الذي هو أشد

وحالتي يرثى لها لما بها من كسور عدة من صدمات الحياة , وتوالت الصدمات وتفاقمت الكسور في النفس .

فكم من صدمة!

وكم من كسر!

وكم من إِلَّمْ !

حتى صار التكوين النفسي مشروخًا ومصدّعا

يمرون عليك فستعطف لهم ،وتمر أنت في الحياة ولا مستعطف لك!

_ماذا تفعل عندما تخرج ؟

سألني إسلام

_ سأذهب لبيت لابن عم العترة أسأله عنه عله يخبرني من أمر العترة شيئا

_ قلت لك، الظاهر العترة أنه نصاب وحرامي ولو كان يريد أن يعطيك مالك لأنتظرك أو ترك لك خبرًا عنه

منطق سليم منه, واتهامه للعترة بالاختلاس لا شيء يرده وليدحضه، وهذا أدخلني في نوبة من الغم والحزن, قلت في حزن بان عليّ جليًا:

_ما العمل إن لم أجده

بتلقائية صادمة

_ استعرض الله

_ كيف ؟!

_ ربنا يعوض عليك

أتذكر جيدًا أن إسلام قال هذه الجملة الأخيرة ببساطة , ببساطة مستفزة , وكأني أقول ضاع مني عشرة قروش ، فقال: ربنا يعوض عليك

عندما سألني هل مات لك صديق ,كان التأثر والحزن بادي على وجه , لكن استعرض الله يقولها بمنتهى البساطة , لم يكن أدنى تعاطف منه حيالي!

سرحت في حزني وارتسمت الكآبة على وجهي , وجريت في عروقي الحسرة ؛فأذبل فرعي الهمُّ ,شردت واغتالني خيال مضني , حاولت التهرب منه فلم أفلح ولم أشعر بإسلام وهو يقوم ويمضي من أمامي ويتركني ,

اتسعت رقعة التفكير في رأسي وانجذبت وراء وساوس جبرية متزمتة يئست الحزن والهم والتفكير فيما ينتظرني في غد مجهول لا أعلم أيكون مبتسمًا ... أم كئيبا ..؟:

يزداد الحزن أكثر وأكثر , ويشغلني بتفكير أكبر ....

انتقلت من على المقعد إلى الكرسي المتحرك أحسس بتعب أسفل ظهري ،وناديت على صبي كان في الطرقة وراء نفسه فأتاني بالكرسي وحاول أن يساعدني للمروق من الطرقة فلم يفلح قبل أن أحدهم ويساعدني على الجلوس على الكرسي المتحرك يمضب بِي إلى حجرة حيث هناك السرير ينتظر مريضه ، وارتميت على السرير مثقلًا بهمّ وقلق لا يفنى حتى

_ بتتعب نفسك بنفسك

تنامي إليّ _ من قريب _ هذا الصوت الهادي العميق وأنا أعتدل في تمددي على سريري بعدما انتقلت من على الكرسي .

أمسك بالكرسي وأرجعه قليلا للوراء ليقترب أكثر لسرير غير مشغول بأحد عن يسار سريري ,وجلس عليه وأعاد كلامه ,بهدوء أكثر , عم ربيع ذو الوقار والرزانة ورغم أنه في الخمسين من عمره لكن هذه الصبغة البيضاء في شعره تزيده وقارا على وقاره منسجمة مع هذه المسحة الطينية في بشرته وعيون عسلية وبنية متوسطة الطول والحجم وبعد أن جلس سلك يده في جيب جلبابه واخرج عبلة السجائر واستأذني وهو يشعل السيجارة :

_ بعد إذنك

يدخن داخل غرفة المرضى! قال : إنه الذكاء في كسر القوانين ،مفسرًا أن تكسر القوانين برضا المتضررين بكسره , ولكن عليك أن تستخدم الحكمة في إرضائهم بذلك .مبتسما في ادعاء خيلاء قائلا : السيطرة ؛فلذلك لم أمنعه ،وقلت :

_براحتك

سحب نفسًا من مؤخرة السيجارة وأنا أجلس ممددا .عاقدًا ذراعي على صدري

تراجع للخف برأسه ونفث الدخان في انتشاء ورغبة وعاد برأسه ونظر إليّ دون أن يتكلم

أخبرني عم ربيع هذا ذات مرة أنه في شبابه عاقر الخمر في أحد الأفراح الشعبية ومضى إلى بيتهم _ في آخر الليل _ سكيرًا لا يدري شيئا من واقعه واستقبله أبوه ،وكان أبوه صالحًا فأخذه إلى الحمام وأكب عليه مَاءًا باردا

وكان ذلك في شتاء يناير، استغاظ عم ربيع وقتها من برودة الماء وغضب بعدما استفاق من أبيه الذي كان هو الآخر غاضبا منه . أخبرني عم ربيع أنه تعلم من هذا الموقف أنه قررالا يفعل شيئا يثير غضبه ...

أنظر في عيني عم ربيع العسلتين بتأمل وهو مشغول في سيجارته . هل أسأله كيف لا أفعل ما يثير غضبي ؟

ولو أخبرني ...

ماذا عن تلك التراكمات التي فعلتها ومازالت تثير غضبي ؟

الماضي ...

في شبابه عاقر الخمر مرة واحدة فعاقبه أبوه بما أثار غضبه , وشبابي ليس فيه معاقرة للخمر , إنما تجارب مازالت تثير غضبي وليت كان معي أبي وردني عنها ،لعمري إني لأظن إني ما مع وجود أبي أفعل ما يثير غضبي

دعك سيجارته في العارضة الجانبية للسرير , وقال :

_ ساقك المكسور لايحسد ساقك السليم , ولا تحمّل السليم فوق طاقته

سألته

_ كيف أتخلص من الندم يا عم ربيع ؟

نظر مَلِيًّا ,ثم شرع سائلًا:

_ وهل أنت نادم ؟

أطرقت في أسف :

_ ... وأريد الخلاص

_ لا تتسرع في الحكم على النتائج, ولو بلغت نهايتها

_ جربت كثيرًا وكل تجربة تؤول بفشل فأندم عليها , وأقول ليتني ما خضتها !

يحز فيه الندم بمنشار غشيم , حتى أنني أقدم على الفعل وأنا أتوقع في النتيجة الندم , كثرة الندم ولوم نفسي أفقداني ثقتي و..

قاطعني عم ربيع بحدة وهو يقول :

_ الندم ضعف , إلا أن يكون على ذنب فيكون فضيلة , دوّر على الحكمة في كل نهاية للتجربة',ربك حكيم خبير

إياك أن تندم فيصير لديك مرض الندم ويقتلك بعدما يقتل فيك الأمل ,ثم أخبرني أنه سمع هذا الكلام من أحد اسمه إبراهيم الفقي ,أخبرني بصيغة السؤال وهو يكمل في أسلوب حكيم :

_ أعبر البحر ولا تنظر في نفسك أنك عبرته مبللا ولكن أنظر أنك لم تغرق وأن في كل بحر صدف يمكنك أن تصادها

ثم سحب أخر نفس في سيجارته قبل أن يرفع نعله ويبعد في باطنه عقب السيجارة وهو يقول :

_ هكذا التجارب

عم ربيع يسألني بدون قصد أتعرف إبراهيم الفقي ؟ وذات مرة نظر إليّ طويلا وقال لي : ليس ساق قدمك المكسور , انما ساق حظك المكسور

كيف أخبر عم ربيع أني أعرف إبراهيم الفقي وأني كنت أحمل في الماضي بطاقة تعريف لي تحمل صورته وشعار مؤسسته وأن هذا الفقي يعد أستاذا لي

أخبره بهذا , وهل يستقيم مع حالي هذا ؟

نمت ليلتي بعد صراع طويل بين الأمل والألم . أمل بتذكري كلام الفقي عن المقاومة وعدم اليأس وأن على الإنسان الطموح الايتنازل عن تطلعه مهما صدته الظروف وأبعدته الحياة . في مسرح الخيال أضيء شريط هذه التجربة رغم ظلمة الحاضر كفيلم يعرض في قاعة مظلمة بدءًا من سماعي لتسجيلات الفقي ثم حضوري المحاضرات وما بعدها

لكن الفيلم ينتهي بنهاية درامية على غرار أفلام الكوميديا السخيفة التي تنتهي بمأساة مع البطل المهرج

لم تكن هذه التجارب غير سبل تنتهي بيأس أكبر

أستقيظت فألفت شخصا غير إسلام ينام على سريريه , دورت بنظري على كل سرير في الغرفة لعله أستبدل مكانه فلم أجده سالت عنه عم ربيع الرجل الوقور فعلمت أنه خرج باكرًا

على غرار المفاجآت يخرج إسلام ,لكن رقم هاتفه معي إن شئت أتصل به

اعتدلت قاعدا ساند ظهري على الوسادة ورجلي ممدان عاقدا زراعي على صدري أزم شفتي عجبا !

أنظر لهذا الرضيع وهو يجلس لاعبا على سرير أحد المرضى بجوار أمه المنتقبة , يلعب الرضيع في غلاف لأحد زجاجات الأدوية يقضم فيه مرة ويضرب بها على السرير مرات , ويصرخ من وقت لأخر في مشهد عبثي خالص الطفولة

يعبث الأمل في مخيلتي واليأس يقبض على عنق ظني في خلاف دائم وذاك الطفل حكم بينهما

عم ربيع لا يستطيع أن يحررني بحكمته من هذا الصراع القائم في داخلي ,أظن أنه لا يستطيع ولا أحد يستطيع غير نفسي وأنا عاجز عن إدراك حقيقة أمري , أجدير بي أن أخضع لليأس أم على أن أقاوم وأن أجري وراء أمل يبدو في نهاية المطاف أنه سراب !

***

ذكر الأيام التي قضيتها في مستشفى قصر العيني حتى نزع عن ساقي الجبس وصيرت متأهلًا للمشي على كلتا القدمين ,كانت أيامًا أذدوجية الحال ,استثنائية...ها أنا كنت أود الخروج وإذا رغبة المكوث حاضرة !

ومتى طال المقام فلابد من نهاية تبتره . وأذكر أني فكرت أن اتصل بأهلي فلم أجد الهاتف ,وكيف أتصل وأنا ما تركتهم الا لأخفف عنهم عبء شخصي الذي أثقلهم وأحزنهم كثيرا ! أو لم أكن فيهم كالجرح النازف أو العضو العليل يوجعهم لكنهم لا يقدرون على بتره ... فما أغباني إن لجأت إليهم وعلموا أني أزدت علًا !

لن ترحمني نظرات الحسرة في عين أمي حين تضمني اليها حاسرة الرأس تشكو خيبتي وقلة حيلتي ...!

لن يسكت عني اللوم ومعاتبة النفس

كيف أتصل بهم ليأتوا ويحملوني بكسري ويعودون بي إلى حيث

حجرتي ...

أرتمي كسودا عاطلًا على مخدعي الذي أصابه العفن من مكوثي عليه ليلا ونهارا

أستيقظ باكرًا أو متأخرا أغسل وجهي وقد أتوضأ واصلي الصبح واستنفد من البيت طعامي ان وجدت واعود اجلس على المخدع مجدًدا .

ايئس ...

اضجر ...

أمل ... ويأتيني الليل على هذا الملل ! ويعود بي الصبح على ذاك الضجر !

أنام لأقوم وأقوم لأنام ... لا جديد يذكر

أعود لأجوب الشوراع والطرقات ....

فاستسلمت للحال

خرجت من المستشفى بتصريح مزيف من أمل غير مسئول .

فما أيسر الهروب من اليأس إلى الملل!

يبدو النيل في ساعة الضحى ناعسًا رغم إنكسار أشعة الشمس الفضية على وجهه المعكر أو أنني أراه ميؤسًا لا رغبة له في الابتهاج !

سائلت النيل وأنا استند مائلا على الحاجز الحديدي أنظر في صفحته ,هل حقيقة المصرين تشبه هذا الحال الذي أنت عليه الآن؟

تبدو صورة حياتهم ظاهريًا ،باهتة ... ملوثة بغباء الحياة وجهلها ...

تبدو راكدة وإن كانت في الحقيقة هي راكضها في درب طويل يتخلله صعاب وتحديات , ليس في باطنك أيها النيل شعبًا مرجانية ولا لأليء , لكنك تحتوي شيئا أخر ... لك ميزة فريدة , سرّ خاص , رغم هذه الصورة الملوثة التي تبدو عليها ؟

لا شك أنك مازلت تحتفظ بميزتك وسرك

هكذا المصريون دوما ....

تركت النيل صامتًا عليلا لا وقت للتأمل في النيل وثمة قلق يسيطر علىّ_ السائحون جاؤوا يتأملوا ويستمتعوا بمعالم مصر وطبيعتها بعدما بلغوا مأمنهم من الحياة . لكن مثلي أن له أن يفعل !

صعدت مضطرًا أتوبيس النقل العام المتجه لحلوان تسللت لمقدمة الاتوبيس متغاضيا عن الكمسري الذي تبعني بصوته :

_ من ركب وصعد لقدام , تذكرة ...

لا ادري لماذا لا تكون كل الرقابة في الموؤسسات كمثل هذه الرقابة في النقل العام !

تذكرة !

تراجعت إليه خذلانا وتباطئت وأنا أخبره اني لا أملك ثمن التذكرة , نظر إليّ من وراء نظراته في استخفاف وتنكر ... ومد يده واخذ عشرة جنيها وسمعتها تقول :

_ثلاثة..

أعطاني الكمسري تذكرة ,وهو يعطيها تذكرتين ,فهمت بديهيا أنها أشارت لكمسري بطريقتها أن الثلاثة لي , لا أعرف كيف كانت الاشارة لأني كنت في عمق الحرج وبفعلتها زادتني حرجًا على حرجي !

تقدمت للأمام وأمها في الحافلة, ووقفت أنا في المنتصف مسككا بالعارضة الممتدة بطول سقف الحافلة , لم أشكرها ولم القِ الى أمها بكلمة طيبة وجدتني ضئيلا ...ضئيلا جدا أمامها , فقد كانت تتمتع بجمال مفرط ,

تعاطفت معي ليس إلا لكونها أهلا لذلك ,سأكون سخيفًا إن نظرت إليها وشكرتها هكذا ظننت حينها ! وشعوري بأن فتاة ساعدتني تعاطفا منها ودفعت لي أجرة الاتوبيس كان كفيلًا أن يستنزف كل بقايا التماسك داخلي!

فتاة جميلة متحشمة بحجاب الأدب والأنوثة الطاغية عطفت عليّ وكان الأجدر بي أن أخطبها من أمها في سني هذا أو أن الطافها على أقل الاحوال ،لا أن تدفع لي هي ثمن التذكرة لتضعني بفعلتها في جب الانكسار وترحل .

عندما لا تملك المال عقلك أما يعمل بشكل أكثر ذكاءًا أو يصير معطلًا أو يختلف من حين لحين أو من ظرف لظرف وحينها لن تستطيع أن تحكم على نفسك هل أنت تمتع بقدر من الذكاء أم منعدم الذكاء كليًا !

***

الفصل الثاني

لا تخفِ المتاعب ودعها تنبح مثل الكلاب المسعورة, ليس لك الا هذه الصرخة التي قد تزعج من هم لا يشعرون بأوجاعك,لكن أعدك أن أحدهم لن بيالي بك بشيء !

في حلقة درامية خالصة انتهيت إلى بيت العجوز بعدما تجرعت جرعة الانكسار ،وشرعت أنادي واطرق . وفعلت مرات ومرات ولكن العجوز لم ترد استشطت غضبًا وتناسيت شعوري تجاه العجوز ورحت اطرق بعنف وأنادي بصوت عالٍ حتى خرج من بيت الجار امرأة خمسينية لكنها تبدو شابة لاهتمامها المفرط بهيئتها ،أخبرتني أن العجوز ماتت ؛ صعقت وسألتها عن العترة وابن عمه فأخبرتني أنهم جاؤوا مع دفنتها ورحلوا بعد العزاء واغلقوا البيت , ثم سألتني عني وما أريد ,

هرعت يائسًا لأبي شهاب كبير إخوة أمك رضا وفي احتمال مستبعد أن يدلني إلى دليل أو يفعل معي خير, قصدته ألم أكن أعمل حمال في مطحنهم أو مطحن اختمها التي ماتت وقبل أن يثبتوا التراب على جسدها طردوا عمال المطحن منه ولم أكن هناك حينها ولو كنت هناك لطردت مثلهم , ذهبت وأنا معلق بآخر فتلة في حبل الأمل الذي قد يرجع لي مالي .

التطلع إلى السراب والنزوح مضطرا لأرض خراب.

لجأت إلى بيت الذي زرته من قبل ودخلته بنفس ذلك الشعور حينها ووقفت ذات الوقفة في البهو ذات الأرائك والديكور ورأيت إخوة أم رضا جميعا علمت ذلك عندما أخبرني كبيرهم أبو شهاب بلسانهم أنهم لا يعرفوا شيئا عن عمال المطحن وأنهم لا يستطيعوا أن يفعلوا معي شيئا غير الذي فعله شهاب أن يوصلني لرئيس العمال , وكانت نظراتهم غير مبالي بشأني تحثني على الرحيل تقول لي في أدب قليل يكاد لا يكون_ أن طالت وقفتي_ أن أرحل , لن تجدي حكاياتي ولن يساعدوك بشيء.

خرجت من البيت وقطعت الفتلة لبيتر حبل الأمل

تلقاني الندم برحابة واحتضنني اللوم على نفسي و (لو) الشيطاني تتداع على فكري , ضيّعت مالي بنفسي !

لو لم ابتعدت عن الضجيج وأكملت طريقي ورجعت للمطحن !

لماذا ذهبت للخرابة !

ولو خرجت من المستشفى وارتميت أمام بيت العجوز لقابلت العطرة وهو يدفن العجوز !

لو كان معي محفظة جيب وكنت أحمل فيه النقود !

لو ....

بل إن (لو) عادت بي إلى الماضي , الماضي الذي أحاول الهروب منه , أسعى لأبتعد عنه , الماضي الذي يرتدي عباءة شبحية ويطاردني كل لحظة وما سلمت منه . لكنها (لو) التي لا تحمل معها غير منشار الندم الذي يحز ويقطع بلا هوادة في النفس والعقل

لو كنت أنهيت دراستي الجامعية !

لو التحقت بالخدمة العسكرية!

لو انتصحت لأهلك !

لو رضخت لظروفك وارتضيت بحالك !

لو .... ولو ...

ما كان هذا حالي !

حينما لا تقدر أن تحكم على تصرفاتك وقرارتك , وهل ما انتهيت إليه هو قدر أم ذنب ؟

أحذرك من هذا , وبشدة ... ستفقد ثقتك بنفسك تَدَرُّجِيًّا وستركع يائسا من كل حال

***(الإيمان بالقدر خيره وشرّه ...)**

ثمة ندم وجزع ,ولوم وتأنيب للنفس ...

كل ما أفعله خطأ , وتصرفاتي غير منضبطة , وغير سليمة !

ما أنا فيه ليس قدرا ,إنما هو عبث ..

وفشل !

غباء ونتائج لتفكير خاطئ !

كل ما أنا فيه من حال مزرية يؤكد أنه ليس قدرا ,ليس قدرا على الإطلاق ,

أنه نقص في الوعي وعدم ذكاء !

ما معنى أن تكرر نفس الأخطاء !

ما معنى هذا ؟

أنك لا تفكر بشكل صحيح , بل أنك لا تفكر على الإطلاق !

تجربة وراء التجربة والنتيجة ....

الفشل الذريع !

الإخفاق ...

الفشل حليفك في كل تجربة , وكأنك تدفع للفشل دفعًا , أو أنك تسعى لتحقيق رقمًا عالميًا تدخل به موسوعة جينس للفشل !

ياله من إحساس مؤذ !

بداية الأمر كنت تبرر فشلك , تلبسه لباسًا زاهيا , تقول أنه إكتساب خبرات , تصيغه بصيغة جعلتك تماطل في الاخفاق

ليس هناك فشل إنما هناك تجارب وخبرات

من قال هذا يا أبله !

هل هذا ما تعلمته من التنمية البشرية ؟

كنتاكي حاول مئات المرات ليقنع الناس بخلطته

واديسون كم حاول ليأتي بالمصباح للعالم!

هذا ما تعلمته !

مالك ومال هؤلاء , هؤلاء كانوا يملكون ما يساعدهم على تكرار المحاولة مرات

ما يساعدهم على الفشل والنجاح

وأنت تملك ما يساعدك على الفشل وليس في ملكك ما يساعدك على النجاح

تجارب وخبرات ...

إلى متى ؟

الاخفاق حليفك والفشل نهاية كل تجربة

تجارب عديدة ومحاولات كثيرة

متى الاستفادة من كل هذه التجارب؟

ألم يكن الاصح والاولى أن تستمسك بتجربة واحدة لتنال منها النجاح !

طريقة تفكيرك لم تقبل ذلك , كان لديك قناعة جعلتك تدخل غي تجربة كنت ترى أنك إن لم تصب النجاح في تجربة تحاول في غيرها , قناعتك كانت مستنفرة للمحاولات فحسب !

جربت كثيرًا..

بتلك القناعة وصلت لما أنت فيه ...

واليوم ...

تخشى أن تغير قناعتك بعد أن اتضح لك أنها كانت خاطئة

لا تريد أن تغير التجربة

ستمسك بواحدة , بشيء واحد

حددت مجالك وعينت هدفًا , لكنك لا تدري أهذا الصواب أم خطأ !

أمشي في الشوارع ولا أملك غير أن أمشي

بغير هدى ... ؟

كيف يفعل من لا يملك بيتا ولا عَمِلَا ولا أهلا بحاله بل ولا مالا ؟

التسكع ...

يأله من عمل بشع لكنك ترغم عليه بحالك هذا !

هل ترغب أن تعبر عن قلقك تجاه ما تفعل ؟

لا تملك غير هذا , فكرة العودة إلى أهلك وبيتك غير مقنعة الآن

لذلك كنت أمشي ....

أتلفت يمينًا وشمالا وأنظر في الوجوه وأطيل النظر أحيانا في بعض الوجوه كأني أبحث عن شخص بعينه , تائهًا في المجهول لا أبتغي غير

معرفة ما سينتهي بي اليوم . سيكون الغد القريب أو حتى البعيد شبيهًا ليومي !

أتلفت ... وأنظر في الوجوه

هل أحسدهم على ما هم فيه ولا أظن أن فيهم ما قد يكون مثلي

متعب.. حزين ...

ضائع ماله , لا مبيت له ...

لايملك شيئا

خائف من المستقبل أسف على الماضي لا يعرف الحاضر!

من الوجوه ما تضحك ومنها ما يكسوها العبوس , ومنها الجامدة المتخشبة ومنها المنشرحة والمقبلة ... تتباين الوجوه وتختلف أحوالها لكنك تراها تتشابه في المسحة الحزينة التي تكسو وجهك وتغلف كيانك !

أهي الخدعة المزاجية أم أنها حقيقة الحال؟

تتمايل وتتخبط في الوجوه عيني, ونفسي تسحب مجرورة وراء أفكارها شبه مجذوب التفت هنا وهناك

هل أنا أبحث حَقًّا عن نفسي في تلك الوجوه؟

قد بلغت حَدًّا عظيماً من فلسفة التأمل.. أو التوهان!

بدأت أشعر بالجوع !

طارق الاحتياج الجسدي بدأ يدق بإلحاح ... ليس بجسدي تلك الدهون التي قد تخفف أو تقلل من هذا الاحتياج , تَبًّا للنحافة !

في الشارع أمام عيني محل مشويات , يا لها من من صدفة مستفزة ! سحائب الدخان المنبعثة من الشواية تحمل رائحة الشواء المغري

هذه المأكولات التي كانت ذات ماضٍ مستنكرة وغير صالحة مصدرها غير معروف , هي نفايات فاسدة

كيف صارت النفايات الفاسدة اليوم وجبة مأمولة !مطمع لا ينال ... إذا رميت إليها انقضت عليها مثل وحش جائع, تفترسها بنهم

الاحتياج ... ألهذا أباح الله أكل الميتة عند الضرورة ؟

يلوي الزمن عنقك بهذا الاحتياج ويضطرك لما كنت تكره ,بل يجعل ما كان مكروهًا محببًا تطلبه برجاء !

وقفت قدام المحل مثل يتيم يشاهد أقرانه وهم يأكلون الحلوى. انظر في الشواء وكأن دخان الشواية له مفعول السحر في جذب الجوعى فمن قدر تذوق ما وراء هذا الدخان كهؤلاء الذين يجلسون على طاولات المحل يراقبون بأعينهم في انتشاء وتلذذ ما يسوى فوق الجمر أو بين عيون النار ... وللشواء مذاق يختلف كُلِّيًّا عن الطهي المنزلي , ومن لم يستطع استعار من خياله مشهدا يساوي مشهد هؤلاء كما فعلت وأنا أزج برجلي عن هذا المكان ,اجتازت الشارع ومشيت عن الدخان ورائحة الشواء بعيدًا .

أمشي وأنا مشوش الأفكار لا تسع حالي فكرة ولا أنا أضمن التسليم لفكرة بعينها , أحتار وإن كنت لا أملك الخيار .خطواتي أمشيها دون قصد أو إدراك ما سينتهي إليه سيري!

دعوت نفسي للراحة من السير على إفريز بجانب سور لمدرسة ولطالما اتخذت من هذه الأماكن ملتجئًا لي , ارتكنت قاعدا في هيئة تثير الشك والعطف معًا .

ثمة حال عندما تصل لها تجعلك لا تبالي كثيرًا ولو كنت في منتهى الإدراك .

التعب من كل شيء حتى التفكير ...!

أعلم أني أقترب _ بحالي هذه _ إلى اللامبالاة , إنه الشعور المستفز لكرامتك التي تحاول حفظها ... تحاول وأنت في شك من هذا !

أخاف من نفسي حينما أختلي بها وكم جمعت بيننا الخلوة !

حديث النفس متعب كلنا يعلم هذا , فهل تدري كيف يكون حديث نفسي معي ؟

يكون حديث ألم ...

حزن ... وجع

حديث مشبع بالندم واللوم

لا تهدأ نفسي فيه حتى تثور وما تثور حتى تيئس !

كادت نفسي تصلبني على حائط الذكريات لولا أن حدث أمامي في الشارع ما أنقذني من نفسي .

مرت طائفة من الشباب والصبيان أمامي تزف _ في مشهد عصابي شبه مخيف _ شَابًّا يبدو أنه في العشرين من عمره لا تظهر ملامحه بوضوح بسبب الدماء التي تغرق وجهه واللكمات التي ترك أَثَارَا بدلت إلى حد ما من ملامحه, يمسك به من ياقة قميصه من الخلف بشكل غير مهذب مهين رجل يمده بالصفعات من وقت لأخر ولم تفتر الصبيان عن ركله ولكزه وسبه

قمت إليهم وانضممت للطائفة في تعجب كمثل كثير كانوا ينضمون ؛ المشهد كان يثير الفضول والتتبع ومثلنا عاشق لمثل هذا الفضول معرفة

الفضائح والتحري عنها ,تهكمات وتوعدات يتبادلها المزفون في سخرية من قبيل :

هو كان فأكر نفسه أمنا الغولة ... سيعلق ولن يرحم ...

وكلما مررنا بأحد كان يسأل عن الخطب , فيرد أحد المزيفين من الصبيان عن فعلته فينال هذا الشاب سبة بذيئة أو يأتي أحد ويضربه

واذكر أننا مررنا برجل فسئل ولما عرف خطيئة الشاب أستوقف سعينا وقام إلينا يقاوم عرجه ومضى إلى الخاطف وصفه على قفاه بغلٍ وأكملنا السير بعد الصقة من الأعرج

هرولنا وراءه وقد أسرع عندما أنعطف يمين الشارع العام ليدخل شارع فرعي لم ينتصف الشارع حتى دلفنا من باب كان مفتوح لساحة مثل الحوش لمنزل كبير مكون من طابقين

يجلس على أريكة خشبية وأمامه الشيشة يسحب من جوفها عبر الليّ المنتهي بفيه يعلوه شارب معقوف في وجه شبه مستطيل وبعيون حادة رآنا عندما دخلنا عليه بالخاطف وألقى به تحت قدمه وهو متريث بشيشته ولم يعبئ بدخلتنا الشعبية عليه حتى بادره قليل من المزفين :

_هذا الحرامي أمسكناه وهو كان في نيته يخطف عيل من موقف التكاتك البحري وتداعت السبات والشتائم إلى الخاطف فأسكت الحاج هليل الدوغري زوبعتهم ونظر في الخاطف الذي كان مثل الذبيحة المقيدة للذبح مستسلم لمصير لا مفر منه

لم يفعل شيء قام وابتعد لآخر الحوش غير أنه سلك يده في جيب جلبابه وأخرج الهاتف ولمحه الجميع وهو يتحدث عبر الهاتف وعاد وجلس على أريكته وأعاد اللي ثانية الي فيه .

يسائلون عمّا يفعلون معه ويجيبون على أنفسمهم في الحال على غرار ذلك المشهد القرشي لأعداء النبي عندما حضرهم إبليس , قائلين في تشفٍّ:

_ نعلقه ونجعله عبرة لمن لايعتبر

_ نقتله ولا دية له

_ نقطع أيده ورجله ولسانه

وكان رأي الصبيان, أن يصلبوه ويقدوا تحته النار أو يقيدوه وينتفه شعره ويخلعه أظافره

جاءت الشرطة لنزع الخاطف من بين حيلهم ,الراغبون هم في تنفيذها فيه .

سلّم الحاج هليل الدوغري الخاطف للشرطة في غضب من الجماهير التي جاءت به ,ولم يشفهم هذا الجزاء وعبروا عن استيائهم حيال ذلك بعدما رحلت الشرطة به إلى القسم

أنفض معظم الذين جاؤوا مزفين للخاطف ,ورحت أنا أستدير بظهري لاستقبل باب الحوش وأعود حيث كنت: الشارع والتسكع في الحواري ... لكن صوته الرخيم كان مثل مشبك أو خُطاف مغناطيسي أوقفني وجذبني للوراء :

_ المحترم أبو شعر ناعم

من بين الجميع ظهر الصوت جليًا أنه موجه إلى , وَحَقًّا شعري كان مختلفًا عن شعور الباقين بنعومته ومظهره الحسن رغم أني لم أهتم به من فترة ليست بالقليلة , الصوت شق الجميع وتمثل لي كنداء إلي في حجرة ليس بها سواي.

استدرت برأسي للوراء تجاهه بعدما أشار إليّ أحدهم أنه الحاج يناديني , وبإيماءة من رأسه بدت طبيعية تقدمت ناحيته باحترام وتحليل له فأجلسني بجواره على الأريكة ومد لي ليّ الشيشة عازمًا على بمشاركته

_ شكرًا لا أدخن

شد نفسًا وبعثره في الهواء ثم بغلظة أطاح في شخصين بقيا ولم يرحلا :

الكل مشي لما أنتما هنا , فضت المسرحية , على بيوتكما , وبخروجهما من باب الحوش نظر إليّ وقال :

_ سألوك من جاء بك أرضنا يا جحا قلت :الرزق أو مصيبة ... وترك الشيشة وقال :

_ ومن جاء في مصيبة ,بعينك رأيت ماذا حصل له , أنت شغال هنا عند من أو في أي عمل ؟؟

هل أخبره أني جئت من هناك أحد القرى الريفية هروبًا من ظروف بنين حولي سجنًا من الهموم ونصبت حولي سورًا من الأحزان واني عملت بالمقهى لشهور ثم رحلت عنها لضعف أجرتي وأني تسكعت في الشوارع حتى وجدت عملا آخر في المطحن وأني جمعت مَبْلَغًا لابأس به لكن العترة أخذه في ساعة .... ورحت أبحث عن العطرة لكنه تبخر ورحل بمالي.

_أنا كنت شغال في مطحن (وكيل الدوغري) شرد بذهنه وعاد يهز رأسه م: مم ,

ثم أجملت له ما حدث في أمر المطحن , وجعل يهز رأسه ويستمع لحديثي وانتهى بنا المقام والحديث أن أرسلني لشخص أجد عنده عملا لي

***

الفصل الثالث

تتناقص وتتضعف تدريجيًا حتي يشملك الوهن في كل شيئ ..

عملي في ورشة صب وصناعة البلاط هي التجربة التي طالت فترتها وقضيت فيها عامًا ونصف عام منغمسًا في تراب الأسمنت الأسود والأبيض , لك أن تتخيلني وأنا هكذا بشكل دوري أذهب إلى العبوات الأسمنتية المرصوصة وأحمل عبوة الأسمنت على كتفي وألقي بها في جوف الخلاطة التي تدور ولا تقف طول النهار واذهب بالعبوة فارغة وأضعها _ في ركن ما بالورشة _ بجانب العبوات التي تفرغ لأجمعها آخر النهار, وعملي لا يتوقف عند هذا الحد إنما ثمة أمور أخرى هي صلب العمل في الورشة وأساسه مثل : حمل البلاط بعد جليه ورصه.

العمل يبدأ من السابعة أو الثامنة صباحًا وينتهي عن الرابعة عصرًا ,ليس هناك عمل مريح وأخر متعب , إنما هناك صبر وتحمل بعد التعود والممارسة , ستسمع هذه المقولة أو القانون العملي عند التحاقك لأي عملي يعتمد على البدن والذراع , وصدقني إن قلت لك : إنه قد يجد الراحة من هو ينحت في الجبال ويقطعه عن هذا الذي يجلس على مكتبه لا يفعل شيئا غير تلك جرات القلم على الورق

دعني أستدعي جهدك ومدى تحملك وأجعلك تعمل معي يومًا في الورشة ,وإني لا أشك أن تود خوض هذه التجربة بفضولك فهيا بنا إلى الورشة . ولكن ها كدت تنسيني أمرًا هَامًّا : الإفطار الذي خرجت من أجله لأشتريه فنحن نفطر قبل العمل مثل باقي البشر وأنا الدور علي اليوم في شراء طعام الإفطار المطعم قريب من الورشة لن أغيب كثيرًا.

أحمل عني هذه الأسطوانات الخبزية فهي كما ترى مازالت ساخنة لأني أتيت بها من الفرن مباشرة سيكون الإفطار ممتعًا لك هذه المرة ؛فقد جئت بالمخلل بجانب الفول والطعمية وشرائح البطاطس وبعض المسقعة , الورشة على بعد خطوات أو أكاد أقول لك إننا وصلنا فهذه البوابة الحديدية المفتوحة هي بوابة الورشة تسألني عن ه المرصوص أمامها ؟

خَيْبَة ظني كنت أحسبك أذكى من هذا ...! هذا هو البلاط الذي نصنعه , يسمى البلاط المازيكو

نعم أعط العيش للأخطل هذا لينثره على الصنية واسترح أنت فلا دور لنا بعدما أحضرنا الإفطار سيقوم البقية بعمل كل شيء من إحصار الصحون وفض الأكل فيها ومنهم من يسأتي بزجاجات المياه ومنهم من سيعمل الشاي بعد الإفطار , لا تتعجل ستعرفهم كلهم

هذا الذي يلك بنهم هو عبده كما ترى عشريني لكنه ضخامة جسمه لا تناسب سنه لا يقدر على حمل عبوة الأسمنت وكم من أهدر من قطع البلاط بتكسره وهو يحمله من سير الماكينة .

كريم بن عم عبده قريب من ضخامته لكنه رشيق ويبدو متحمسًا للعمل في مثل سن عبده لم يكف هو وعبده عن مناكفته طيلة اليوم حتى أننا ننسى ونلهو عن مشقة العمل ونحن نتابع مناكفتهما لبعضهما

الشيخ محمد هذا الذي يذكرني بصبيح , لا يترك صلاة لا يؤديها إلا في المسجد ولا يلفظ لسانه إلا بالكلام الطيب , من حين لآخر يدعونا إلى الله ويحثنا على الصلاة , حتى اعتقدت أن كل مكان لا يخلو من رجل صالح

وغريب الأطوار هذا صديق السلاموني بهيئته الكبيرة هذه يبدو صغيرًا رغم أنه تخطى الثلاثنين بعدة سنوات , لا يحلو له الهزل واللعب إلا مع الصغار وما هم دونه في السن لذلك يدعوه صاحب الورشة بالهاطل لبعض أفعاله الصبيانية : يجري وراء الأطفال في الشارع .لا يغضب كريم (الأخطل)من صاحب الورشة لأنه في النهاية يخبرنا أمامه أنه يحمل قلب طفل في صدره.

العمل مع هؤلاء في الورشة ينسيني_ قليلًا_ همومي التي ترسبت داخلي , فضلًا عن مشقة العمل وأتعابه ....

مثل هذه الآلة الميكانيكية التي تدور ... في شكل أفقي لتخلط ما تلقي أنت يا صديقي الآن في داخلها من مياه وأسمنت ورمال لتخرجه بعد عملية التدوير ملاطًا يصب قوالب بلاط هذه القوالب تسير _ في حركة ميكانيكية أيضاً_ على .... ليضاف لها وجهًا من خليط الأسمنت الأبيض والحصى لتصبح بعد هذه العملية المتكررة بلاطة صالحة تتدارس بالاقدام.

صنعت هذه البلاطة لندوسها بأقدامنا , قد تكون حياتنا مثل هذه البلاطة في وقت ما !

يأخذك الجهد والانفعال مع الحياة وتخلط مع الأتعاب , وتدور في الأيام ولأتقف ,وتصب عليك الأحزان كاملةً, وفي النهاية ...

لا شيء غير المهانة !

هل تشعر بالسلبية حيال ما فعلت ؟

لا نتائج تذكر..

(الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)

بالله كيف لا يجن أو لا ينتحر من دخل خلاطة الحياة ودارت به الأيام باتعابها ومشقاتها ... ومن ثم يكتشف أنه كان ضال السعي !

لم ضال السعي وقد كان سعيًا في الحلال !

هل لأنه تعب في السعي ؟

بالغ في التعب ووصل لحد أرهق حتى من حوله ؟

ألفت نفسي مطوية تحت صفحة الندم؛لأن كل التجارب التي خضتها بائت بالخيبة والخسر ...

يأله من شعور مزعج ... ! أن تظل تحاول وتحاول .... ثم تكتشف أنك كنت.. ضال السعي !

كل الارتباك يصيب تفكيرك , ولن تفلح في إعادة التوازن النفسي , سيكون الخلل عنوانك والتخبط مبدئك

سترغم على القبوع في إحدى زوايا اليأس ؛لأن حيلك كلها تبدو كاذبة ...وخادعة لشخصك.

تظن عجزك حينها ... ستعترف بضعفك بسهولة.

فكرت ... حاولت .. اجتهدت ... سلكت طرق كثيرة .

لكنك كنت ضال السعي!

خلقت لشيء وفعلت غيره. لكنه شيء حلال.

طموحاتك الشبابية تعارضت مع تركيبتك النفسية ومواهبك الفطرية.. فضللت السعي وخسست

,ولم تصب من تجاربك غير التعب والخسران المبين

أين المال الذي ركضت في سبيله ركض الوحوش في البرية ؟

كنت تتطلع في سن صغير لتلك الثروة الضخمة التي تجعل منك شَابًّا ثَرِيًّا فريدًا بين أقرانه بملكه وجاهه : سيارة , ومسكن راقي ... وزوجة ...

يأله من طموح شرعي لكنه مستفز ! وأيم الله مستفز ؛ أن تحلم بمثل هذا وأنت تعيش هنا!

أَنَّى لك أن تزعم أنك لن تصل للثلاثين من عمرك وقد امتلكت كل تلك الأشياء. كنت تصدع من حولك بهذا الطموح المراهق ,ولهذا التطلع .... أهملت ولم تهتم بالتعليم في الجامعة و... إلى أول مشروع عرض عليك

كانت الجامعة أمرًا تَقْلِيدِيًّا _حسب ظنك وقتها _ كان التعليم الجامعي من التقليد الحياتي, وكم أنت تكره التقليد وتمقته بحق !

لم تهتم بآخر عامين في الجامعة رغم تفوقك في العامين الأولين

المشروع كان له السطوة بالغة الأثر في تكوين فكرك عن المستقبل : المال المال المال , كل شيء سيكون إن تملكت المال الكثير....

هو المفتاح السري لكل الأبواب التي يتعسر فتحها.

عالم سحري بني في لحظات في أرض خيال خصبة لمثل تلك الأفكار الملهية

كان الغاز ذلك المشروع الوهمي أن تصنع هذا العالم السحري في خيالك وتكتبه على ورقة وتريه لقائدك في المشروع

هكذا ستبدو الصورة الخيالية أصدق وسيبدو الواقع أسخف مما كنا نتوقع

وجدير بالذكر أني اقتنعت وبشدة أول الأمر

ضال السعي !

لم يقنعك وقوفك وسط المحاضرة وأنت تُعْرِب_ إعرابًا تفصيلا هذه الجملة المكتوبة على اللوحة الخشبية وراء الدكتور _كمثل هذا الماهر بفك أجزاء مسدس إلى وإعادة تركيبه في سلاسة ومهارة ,مثله كنت تفعل بالجملة _ ومعظم الطلاب يرمقونك بنظرات التشجيع والحقد معًا !

لم تصدق هذا الذي أخبرك ذات يوم أن تمتلك حِسًّا خطابيا عندما قرأت عليه صفحة من الكتاب .

أو ليس هؤلاء الطلاب الذين مدحونك باللباقة ولذاقة اللسان كانوا يحبون أن يسمعونك وأنت تشرح أو تناقش !

كنت جدير أن تصبح معلما فذا لملكة الشرح التي وهبتها ومهاراتك التي اكتسبتها

ها أنت لم تقتنع بكل هذا واقتنعت بفكرة الثروة ؛ ودورت وراء هواجسها مثل المجذوب وراء صوت النداهة

سرقك الوقت ومضى العمر سريعًا , سريعًا جِدًّا.

تفلتت منك

الثلاثون من عمرك خالية من السيارة والسكن الراقي والزوجة ...

الثلاثون من عمرك ؟

أذكر أَنِّي انتفضت وقتها وشردت بنظرني عن الخلاطة التي كان يلقي الهاطل في جوفها بتراب الأسمنت . اختلست بعض الوقت من العمل , أستحوذ عليّ فكر ما يهدأ عني البتة

صوت الخلاطة وهي في حركة دوران سريع وهذا الآلية التي يعمل بها العمال والآلات توحي بشيء واحد ...

الثلاثون من عمرك

لم تسلم من وخزات الندم التي ما فتئت تسكت عنك البتة

هذا الحزن الثقيل الذي ترسب داخلك جعلك تتذكر كل لحظة مرت بك

في الأعوام الأربع الماضية ، بل في كل حياتك السابقة

أيام الجامعة

وتتساءل مع نفسك ما نتيجة الأربع سنوات الماضية ؟

سؤال منطقي لا شك

والجواب ....

أفظع منطق:

لاشيء!!

مجرد محاولات انتهت بخيبة الأمل ... ركض نهايته التعب ... والندم

عبث آل إلى غير فائدة، تجارب متعددة وفي النهاية فشل تام ...

استنزاف لمخزون الهمة فحسب

تعب ...

أرق ...

مشقة

ضجر

تململ

استنزاف

عذاب

مقاومة في فوضى الحياة

الحمار يظل يدور بالساقية ويتعب ومصب المياه من مصدره مسدود والكلب يلهث ولا يجد رفات العظمة بعد اللهاث,

الثلاثون من عمرك

ضللت السعي وكنت تحسب أنك تحسن الصنع , لو أحسنت صنعا لكنت الآن معلما في إحدى المدارس أو موظفًا في إحدى الوظائف التي تليق بما كنت تملك

انسللت من بين العمال ومن بين الأفكار وذهبت للحمام أو بالأحرى أني كنت أريد أن أرى نفسي ,أتأملني لبعض الوقت

هل كنت أود أن أقف أمامي لأعتابني ؟

لأزجرني ...؟

أم لشيء آخر ذهبت تجاه الحمام ووقفت أمام هذه المرآة التي تحمل لأحد العمال لمسة إبداعية تلك اللمسة التي أخفى اعوجاج كسرها بالإطار الأسمنتي الذي وضعها داخله ,نظرت في وجهي أولًا ,لم تكن شرائح العرق المختلطة بالتراب على وجهي هي ما أرهقت ملامحي ورسمت علي صفحت وجهي هذا القناع المخيف

هذه الآثار الناتجة من الجهد والعمل تمحى سريعًا بمجرد غسلها بغرفة ماء أمسح بها وجهي ولن يكون شيء بعدها , أما ما أراه مترسبًا على وجهي ,مختلط بملامحي فأي غسل يزيله؟

أذكر أَنِّي حدثت نفسي أمام المرآة ؛فوجئت بمنظري فلم أجد غير حديثي مع نفسي سِرًّا وأن جهرت شيئا الكلام ولفظت

بعض الألفاظ , كأني أنكر أن أكون هذا أنا !

عبوس وجمود ..وملامح ساخطة

أن تحمل من الدنيا ما يكفيك من الحزن والكآبة ما يشفع للشيخوخة تزورك وأنت في ريعان الشباب

سياط الحزن تجلد روحك بلا هوادة

غمائم الهم تغطي صفحة وجهك فتبدو كبيرًا لحد لا يصدق ...

عجوزًا بالمعنى الأدق !

ثمة خطوط ما على وجهي ,علامات لحالة ما أعيشها ... لظروف مررت بها تركت أثارها المزعجة على ملامحي

كيف أمسح وأزيل عن وجهي هذه الآثار ؟!

لماذا تبدو ملامحي جادة وحادة إلى هذا الحد المنفّر؟!

تغيرت ملامحي عن صورتها من عامين ماضين

عبثًا أبتسم ..وأدقق النظر في الابتسامة لعل تغير يرضيني في الوجه أراه مع الابتسامة , لكن لا شيء ...

أوسع من الابتسامة ولاشيء !

أضحك ,أحاول فعلًا الضحك . أصر أن أرى الخطوط التي نحتت على وجهي تتقلص لأقنعني بأنها عارضة وتزول إذا ما أعدت البهجة والضحك إلى نفسي,تبدو الكآبة قاسية بحق وتعاند محاولاتي لترغمني على الاعتراف بها , يا لها من من حقيقة مفزعة !

يحمي الإنسان وجهه عن أي مخاطر تتعرض له لأن الوجه حساس بما يصيبه , توليتر بما تشعر به وما تخفيه من كد وهم

مجازًا أن الوجه هو وجهتك

فلماذا لم أحمِ وجهي من الزمن؟

لماذا ؟

انتهيت من تأملي لم أكذب المرآة وإن حاولت ذلك

أنظر في وجوه من يعملون معي في الورشة ,أبحث عن تلك الخطوط التي أراها في وجهي عندهم , التفت إلى هذا وذاك أنظر بشغف ... أحدق باهتمام.. ثمة خطوط فعلًا عند بعضهم لكنها ليست واضحة مثل تلك الخطوط التي في وجهي , بسيطة وتبدو طبيعية لحالهم فهم أيضًا لا شك أزملهم الزمن . لكن تلك مسحة الكآبة وقناع الحزن لم أجدهما في الوجوه . حدقت في الأخطل رحت إليه وهو يحمل عبوة الأسمنت وملت عليه وحدقت في وجهه طويلًا حتى تعجب مني الأخطل , وقال : جن هذا

هل كنت أتمنى أن أرى تماثل لوجهي في وجه الأخطل , أرى الكآبة والعبوس , أرى أثارات الحزن , بقايا الهم

لم يتوقف الأمر عند الأخطل ,لم يسلم البقية من نظرتي المتحفزة لملامحهم , وهذا عبده يلاحظ نظراتي المتتابعة فيخرج محفظة نقوده ويخرج صورته ويعطيه لي . حَقًّا لم أعبء بردود أفعالهم ولو كان الشيخ محمد لثم على شعري هزلًا وقرأ بعض الآيات .شعور متناقض سيطر عليه وقتها , لا أدري أكنت أحسدهم على وجوهم أم كنت أقنع نفسي أن أمر بحالة استثنائية تتلاشى مع ذهاب الحالة النفسية .

تركت نفسي مع أفكارها وحاولت أن أتناسى بالعمل ورحت عند رصص البلاط أحمل منه ما يستحق أن يخرج

وأخذت أضع البلاطات فوق بعضها لأحمل رصة منها للخارج كنت أفعل وأنا أنظر في وجه الشيخ محمد وعلي حين غفلة تقع بلاطة على إصبع الخنصر فتشرمه وتحدث فيه قطعًا كبيرًا ,قطعًا بشعا دلق معه دمًا كثيرا ,أزم القطع بيدي وأحاول كتم نزيف الدماء وبشاعة الجرح توحي إلي باللوم ,قطرات الدماء بقع داكنة على وجه شريحة من البلاط تمثل مشهدًا من الضياع العبثي لحياتي ,كل قطرة تمثل جزءًا من عمري أهدر هكذا ,دون وعي إدراك مني ! أتأمل بقع الدماء وأنا أكتم آهات لن تشفع لراحتي وإن صرخت بها عاليًا .

لمح كريم أني أصبت فجاء إلي ونظر في الجرح وقال :

_ بسيطة

لم تكن بسيطة كما قال ذلك الكريم , لقد نظرت في الجرح وعلمت مدى حجمه , إصبعي لم ترحمه البلاطة وأحدثت فيها قطعا لن يلتئم سوى بالمخيط الطبي . أزم الجرح والدماء تتدفق بشدة تندلق على البلاط , تهدر !

جريت من الورشة واتجهت للشارع وكريم يشيعني وهو يقول :

_ هناك أحزانه في الشارع الخلفي

توجهت للأجزانة ودخلتها في استغاثة لا تناسب أصابتني لكني كنت أشعر بشيء ما . لا أدري ما هو لكني كنت أشعر بحاجة إلى احتواء أو تصبر أو شيء من هذا القبيل

ترك الجريدة التي كانت في يده وأمسك باصبعي ونظر فيه من وراء نظارته السميكة وسألني بهدوء خالص,بهدوء غير طبي ... مستفز, ما هذا ؟

ـ جرح يا عم الحاج

عدته في الأجزخانة البدائية ومسكته لاصبعي المجروح وسؤاله غير الصحيح برهنوا على عدم انتسابه لطائفة الأطباء أو حتى معرفته بعالم الطب لكني كنت مجبرًا على أن أجلس على كرسي أمامه وهو يخيط إصبعي ويدخن سيجارته في نفس الوقت .

انتهى من غلق الجرح بتلك الغرز الخمس التي ربطها وغطاها بشكل غير طبي برقعة شاش وأعطاني حبتين من المضاد الحيوي وأوصاني بالراحة

عدت للورشة أنا والشيخ محمد وكريم اللذان قابلتهما عند عودتي وقد كانوا يقصدون الأجزخانة ليّ ارتميت على الفراش وكأن النبض أنتقل فِعْلِيًّا مكان الجرح

لم أعد أشعر بشيء غير الألم, الألم الشديد !

بحق لم يكن يتناسب حجم الحرج مع حجم الألم فالأخير كان أكبر بكثير !

نزف الجرح بغزارة حتى انتابني شك لكنه أمر طبيعي أما عن الألم فليس طَبِيعِيًّا!

جاء الليل وقضيته متلويًا تحت وطأة الألم , متعذبًا بنغزات الحرج ...!

تقطع النوم وما فتئت أقوم وأنام وأتوجع حتى طلع الفجر فنمت

قاومت وهن ما بداخلي وعملت في يومي لكن مع الظهر أزداد الوهن حتى كدت أسقط أرضًا فالتجأت للفراش وارتميت لا أدري شيئا .

في غرفة بدائية البناء أربع جدران من الطوب الأسمنت العاري من الطلاء وفراش منصوب من الخشب فوقه بطانية ووسادة قذرتين

بنيت هذا الغرفة اِحْتِيَاطِيًّا لمن يريد المبيت, ولم يبت فيها سواي لأني أنا الوحيد من عمال الورشة من ليس لهم مأوى غير تلك الحجرة

استفقت من نومتي مثقلًا , نظرت من نافذة الغرفة فوجدت الليل غلف المكان فعملت أني على الأرجح بعد العشاء عمال الورشة ذهبوا إلى بيوتهم وأنا هنا في الغرفة وحدي .

تنزلت من على السرير بضعف ,مازال الضعف محطا بجسدي والألم في إصبعي لم يسكت, وشعرت بإصبعي كأنه كتلة متضخمة ,الجرح جعلني أشعر أن تصبحي أثقل مني بكثير

تنقلت في الحجرة أبحث عن أي طعام ألقيه في معدتي فلم أجد ,جلست برهة على حافة السرير بعدما انتابني دوار بسيط , أنفخ في إصبعي طمعًا أن أخفف من الألم , محاولة عبثية أعلم أنها كذلك, لكن كنا نفعل هكذا ونحن صغار ,ثم قمت مُضْطَرًّا وذهبت للحمام .وأذكر أَنِّي كنت أجلس القرفصاء ونظرت لهيئتي وأنا متكور في نفسي ,ملابسي متهدلة وشعري اشسعث واثار من التراب تتراكم في شقوق وجهي وقفاي ممتزجة بالعرق , نضرة لنفسي على حالي رأيتني ضئيلا ,قليلا , يستطيع أن يجمعني بتكوري هذا_ بين ساعديه شخص في مثل سني, تأكل مني النحافة أكلًا سريعا وعنيفا لتبدو صورة عظامي في شكل مضحك محزن معًا , وللصحة حظ فيما يصيب البدن بتناسب طردي :فكلما نحف البدن ضعفت الصحة ووهت

وها أنا أنظر في المرآة التي لم تمضي الساعات على نظري فيها ويستحيل النظر تأملًا مزعجا لنفسي ,سني أكبر من جسدي ووجهي أكبر من سني وصحتي أقل من كليهما

أجتمع الهم مع الحزن مع الجوع أحيانًا وفوق كل ذلك تفكير شاغل كل أوقاتي, لم أهدأ منه إلا سويعات النوم القليلة

شعور متعب جِدًّا أن تكون بمثل هذه الحال !

هناك من ينقص منه شيء من حياته فينظر لصحته تعزيًا فيما أصيب ويقول إن الصحة أهم شيء ؛ فما بال هذا الذي ينظر لصحته فيجدها تنقص ويفقدها كما فقد كل شيء !لن يجدي أي عزاء للصحة والعافية

مللت المرآة ومللت حالتي ومللت حياتي كلها , وفضلت أن أعود للغرفة وأرتمي على السرير والتف بالبطانية القذرة لعل النوم يصيبني فأغيب عن واقعي

لن يرحمني بلعنة الفكر والوساوس , حاولت وما فلحت فإن أنال النوم , تقلبت على السرير ونفخت في الجرح , وتأوهت ... وأعيد في مخيلتي مشهد البلاطة وهي تقع على إصبعي

أتخيل القطع الذي أصاب خنصري فيقشعر بدني , إعادة رؤية الحدث في المخيلة يبدو أشد فزعًا من حقيقته !

تلويت بعنف وضجرت ونفخت كثيرا في الجرح والليل يجر أقدامه ولا يسعى ,هالة من الجزع أحاطت بِي ما أصعبها لحظات

دقائق

ساعات

إنه الليل مع كل ألوان الوجع !

تتوجع ولا يشعر بك أحد , تتلوى ولا تجد من يديرك ...

أنت غريب في دنياك , طريد بظروفك , ليس لك أحد يهتم بك!

وذاك الماضي بذكرياته يحوم حولك ,يلهث ورائك , يجلس أمامك في الغرفة ويبتسم بمنتهى الخبث والابتزاز ويوزع داخلك الألم القديم

أبحث عن مهرب ..أجد في إيجاد مفر ... أستغيث بالنوم

ولكن..

خاصمني النوم بحق في تلك الليلة ، رحت أتقلب على جنبي يمنة ويسرة ,وعلي بطني وظهري, أزم رأسي بالوسادة القذرة لعلي أفلح في إقناع رسول الهجع أن يتغلب على شيطان الأرق الموسوس لي بأفكار لا تهدأ أبدا !

كأن شخص يريد غيظي فيلقي عليّ من حين لآخر هذا الكلام:

صديقك ، رفيق الدرب، ملازمك في كل شيء : التعليم ، اللعب ، الذنب ، التقوة العبث ..الهزل ..اللهو

أتخذ مسارك الذي وددته ذات مرة وأنت صغير لكنك اليوم أدركت أنك لم تصاحبه في هذا المسار وأتخذه هو سريعًا

سار على القضبان الاعتيادي لحياة معظم الشباب وأنت تخلفت عن المسار فلم تلحق بالقطار وهذا ما كان صديقك ذات عهد

أنهى تعليمه

وذهب وأدى الخدمة العسكرية

بنى شقته ...

خطب ...

تزوج ...

أنجب ....

أستقر

وشرع يستمتع بحياته

وأنت ؟

مازلت تبحث عن هذا الشيء الذي ضاع مع غلبة الظروف , وانفلات العمر !

لكنك مازلت محتفظا به في نفسك ، مستمسكًا به في إصرار المنهزم

يا لفلسفتك ...!

أتلوى من الأرق والتعب والوجع , وبدا الليلُ ثقيلا بحد لا يطاق

لماذا لم ترض أن تكون اِعْتِيَادِيًّا وقنوعًا ؟

تسلك تلك المسارات المحفوظة, بلا تجديد أو تغير..

بسيطة كانت المحاولة لو أقحمت نفسك في درب السائرين على نمطية الحياة الثابتة

أكنت ترى ذلك خنوعًا لدكتاتورية الحياة وغلبة الزمن وقهر الظروف ؟

لم ترض بالإذلال العسكري ،التكدير والسمع والطاعة

لماذا لم تحمل عبء التدرج في تكوين الحياة

تجمع حصاة معيشتك ، تبني حياتك

تختار من بينهن ذات الجمال فحسب ... أو الخلق قفط ... أو حتى الحسب

تريدها من نسل النادرات ، المكتملات دينا ,وخلقا .... وجمالا وأدبا ... وثقافة وعلما

تريدها أميرة في شخصها

بل كنت تريدها محبة للشعر والآداب حتى تقرأ عليها شعرك

أنك لسخيف لحد الملل

إنك لم تنجب بعد..

إنك في الأصل لم تتزوج يا تعس

أنت الآن وحيدًا ...بعيدًا عن كل هذا

ومسكنك في الحياة..

لم يكتمل !

أنت حَقًّا تشتاق لهذه المكالمة عبر الهاتف تسألك لماذا تأخرت في العمل ؟

وترد عليها في حنو أو غضب :

الطريق مزدحم

أقل شعور يبدو للمحروم من أعلى منازل اللذة , يروادك كأنه غاية لن تدرك أبدا !

حينها تخشى على نفسك أن تصاب منطقة الشعور والإحساس فيك بالقرحة أو الصدأ.. فكلا العيبين يكونان نتيجة الإهمال وقلة الممارسة !

ولم يخلق الله لنا الشهوة لكبتها

وقد صار كل شيء لديك اشتهاءا

الزوجة اشتهاء

الولد اشتهاء

الشقة اشتهاء

الملبس

المأكل

التنزه

الصحة

الوقت

كل شيء اشتهاء...

الموت صار اشتهاء

حتى ضمان القوت صار عندك اشتهاءا ملحًا..

تداخلت الشهوة مع الاحتياجات ..تلاشت الحدود بين متطلبات الحياة ومتعها ...

الغارق بحاجة للإنقاذ

لشرب الماء

لتبديل ملابسه المبتلة

لتهدئة روعه

.....

أوشك كل شيء يدنو من الالتزام

هل أنت كفيل بهذا الغريق ؟

بنفسك؟

فلماذا وصلت لمرحلة الغرق ؟

كأن ساطور حاد ضُرب به رأسي شعرت عند هذا الحد من التفكير بشجة قاسية المت برأسي كله , ملئت الفكرة كل تجاويف دماغي فتصدعت بها , ولا شُعُورِيًّا رفثت الغطاء من عليّ ونهضت واقفًا اقطع المكان جيئة وذهابا من الزهق المؤرّق

تحولت هذه الجدران الأربع قضبانًا سميكة لسجن صنعته في داخلي تلك الفكرة الشيطانية , وبات الليل سجانها

حاولت الخروج من السجن ولم أفلح !

لماذا وصلت لمرحلة الغرق ؟

وصلت لسنك هذا ولم تنجز شيئا ؟

بأقوى ما يمكن يهوى الجلاد علي بسوطه اللاذع وبقسوة يضرب

أئن في داخلي ...

أتلوى ...

أموت ...

أصرخ

أتلوى من الوجع ، من الاحتياج ، من الشوق ، من الاشتهاء.. من الحاجة

أرى البر بعيدًا وقد أظل غارقا لوقت لا أدري

قمت منتفضًا نافرًا يائسًا مهزومًا أمام نفسي وأمام كل الحياة

ثم جلست هامدًا ،وعاد يقول :

متى تنهي هذه المعاناة ... أو تضع حَدًّا لتلك المهزلة

ألا يكفيك تعنت الحياة

إلى متى يكون هذا الحزن والوجع؟

التعب والإرهاق والركض في متاهات لا تنتهي

هل باتت الحاجة ملحة لهذا الشي الذي يسمونه ...

الموت (الراحة الأبدية)

عدّ بروحك إلى ربها ...

خلصها من تحت أسنة السيوف التي ما هدأت في ضربها بكل خبث الحياة وغدرها

وعلي حين غرة من بين هياج الأفكار المؤرقة التي أغرقتني في أمواجها الطامة سمعت صوت نباح لكلب ويبدو أنه جائع ,كان نباح الكلب متقطعًا أجش ,سمعته أول الأمر من

قريب ثم تباعد تَدْرِيجِيًّا لكنه يتنامى إلى أذني بوضوح , يتسرب من بين جدران الليل الصامت وتتلقفه مسامعي برغبة واستشهاد

كيف أصف تلك اللحظات التي تردد فيها النباح ؟

الليل كان ساكنًا خالص السكون كأن ليس فيه حياة ,وأنا مرتمي على سرير جاف لا أجد فيه ما أدير به وجعتي , أو أحتال به على أصبعي المجروح الذي بات ثقيلًا جِدًّا ولم تنفع نفخاتي في إخماد ألمه حتى بت وقتًا

من الليل رافعًا زراعي لأعلى . ونوازع الجوع هي الأخرى تتشرئب إلى أي لقمة داخل الغرفة لكن لا أمل في ذلك !

هي اللحظات التي لآتمر !

وإن مرت أعدك أنها لا تمر بسهولة !

صدى النباح يتردد في عمق جرحي فتفور كل خلاياي بالألم , لكنه على أي حال كان ألمًا أخف , فتلك الصورة الخيالية المؤرقة تبددت عن ذهني لطالما ركزت لصوت النباح تبددت وتلاشت , يأله من كلب لطيف إذ ما طال نباحه الأجش !

وكم سيكون أكبر لطفا لو جاء وقرض هذا الجزء المجروح فيّ وخلصني من الألم

أحتاج حَقًّا لمساعدة ...

يأله من شعور بشع !

قد بدأت أشعر بخمود يدثر جسدي ,أطرافي ترتعش بطيئا وغاب عني الوقت , أرى تلك الأشياء الوهمية

كف ضخمة في حجم بابا الحجرة ممتدة من زراع رفيع جِدًّا مثل الخيط يوم تجاه وجهي ويرتد، وأناس في حجم عقلة الأصبع يطوفون أمامي وثمة واحد منهم يكبر حينا فيصير في طول الوسادة ويصغر حينًا فيعود لحجمه الأول ،وكرات نارية تتدحرج على بساط من شيء لا أدري حقيقته لكنه قريب من الطمي ,أغفو فأرى هذه الخيالات وأفيق فأشعر بحقيقة الألم الذي يزداد مع وطأة الحمى التي تسبب لي تلك الخيالات

غاب عني الوقت فلم أدري كم مضى من الليل على حالتي !

ارتفاع درجة الحرارة في جسمي جعل إغفائاتي مثل النوبات الاغمائية التي تصاحب مرضى السكر يغيب عني الوعي والإدراك !

هبت نسمة شديدة من الرياح فارتطمت بضلفة الشباك الخشب للغرفة فانفتحت ضلفة الشباك وبعدها قفذت قطة غريبة الاطوار داخل الغرفة وتمرمغت في ارضية الحجرة بشكل اخفاني ، ثم انسحبت تحت السرير الذي ارقد عليه , لا ادري على وجه الدقة أكان هذه حقيقة بالفعل أم من الخيالات التي صاحبت غفواتي في تلك الليلة العليلة ؟

استفقت على شعاع الشمس وقد نفذ من الشباك وافترش على سائر جسدي وكامل الحجرة فقمت على إثر لسعته التي اغرقتني بعرق غزير كأني رميت بدلو من الماء

قمت مترنحًا وأمتطيت حذائي الذي بدى ثقيلة على قدميّ من التعب وخرجت من الحجرة وانا اتطوح , مازال الاعياء يشملني تحسست بطني وخدي بكفي , الحرارة مرتفعة وصداع شديد يلم برأسي

ذهبت دون أن اغسل وجهي من الاعياء _ للصيدلية التي خيّطت فيها جرح إصبعي لم أجد صاحب النظارة المدخن ، إنما كانت تقف مكانه فتاة ذات جمال فاتن يؤهلها أن تقف على مسرح الاضواء تغني أو ترقص لا أن تقف في صيدلية في شارع يمر به مثلي

,استندت مرفقي على الحاجز الزجاجي بيننا وقلت لها في اعياء :

_ أريد مسكن خافض للحرارة

تقدمت الي وهي تنظر اليّ بنظرة ممزوجة بالريبة والاحتقار وسألتني :

_ مما تشكو ؟

أشكو من الوجد والوحشة ,أشكو عذاب الوحدة والحنين .....

أشكو منك

ردت بتصعب :

_ سخونة وصداع

لمحت الشاش الملفوف على إصبعي فقطبت وسألتني في تقرير :

_ جرح هذا ؟

_ خيطته هنا أمس ,خمس غرز

تغيرت النظرة من الريبة والاحتقار إلى العطف وقليل من الاحتقار ووضعت كفها على جبيني

قالت :

_ يلزمك حقنة مضادة للحرارة

فقلت في تسرع دون تفكر :

_ أخذ الحقنة

رمقتني بإنكار ومقت وقالت :

_ اذهب وعد بعد ساعة وخذ حمام بارد حتى تخفف من درجة الحرارة لديك

ذهبت وعدت بعد الساعة ولكني لم أخذ الحمام البارد لأني وجدت الماء منقطع عن الصنور وبعد الساعة كنت في الصيدلية وكشفت قليلا أعلى رجلي فدس صاحب النظارة السميكة إبرة الحقنة وأفرغها في العضل وأوصاني أن أهتم بالجرح وأن آتيه أخر النها ليبدل الضمادة عليه

عدت أدراجي وأن أشعر كأن السائل الذي أفرغه ذو النظارة يسابق الدم في العروق ليصارع الحمى ,بدأت الحمى تخف تَدْرِيجِيًّا ,لكن الجوع يتزايد ويلح بشدة

حيدت عن طريقي تجاه المطحن وسلكت أخر بعدما سألت عن مكانٍ أجد فيه طعامًا فأرشدني صبي أعمص العينين بمطعم هناك فاتجهت خلف إرشاده في توي

أمام امرأة تجلس على مرتفع من الأرض وأمامها إناء مقعر (طاسة) تقلي فيه عجين الطعمية في زيت لتبدل لونه إلى أسود وبجورها قدر الفول وسلة من العيش محط أنظار البكتريا.

حام حولي كلب نظرت إليه وقلت : ألا يكون هذا الكلب هو ما كان ينبح البارحة ؟لعله يبحث الآن عن طعام يتجرعه , ابتعت منها ما يسد جوعي مرمغما ومشيت خطوات وفي يدي الطعام تذكرت الكلب :

كم هي مسكينة الحيوانات إذ لم تجد ما تأكله !

رجعت إلى الكلب عاطفًا عليه ورميت إليه بالطعام الذي اشتريته من المرأة وتأملته وهو يشمشم فيه ويقلبه باظافره ثم بال عليه وتركه، رحلت وأنا أشعر بتحسن مما فعلت وإيجاد مأوى أطعم فيه جوعي لم يكن صعبًا ما غابت الحمى عن جسديز

فلم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي أذهب فيه لصاحب النظارة السميكة ليغرس فيه إبرة الحقنة حتى حثني على زيارة الطبيب قائلًا :

_ الحرارة في جسمك درجتها عندك مرتفعة وحالتك مزرية ,لاتسكت على هذا

تجاهلت نصحيته لزيارة الطبيب حتى لا اكلف محفظتي ما لابوسعي , ثمن الزيارة والدواء الذي سيوصي به عند انتاء الزيارة

اكتفيت بالمسكنات ،والحمى عندي درجتها مرتفعة وحالتي مزر حسب قول الصيدلي ,لكني إكتفيت ...

ومضيت ...

أتوجع وإلعن الشارع الذي سيرت فيه والكلب الذي تبول على الطعام

وأتصبب عرقًا ودمعا وأخذ المسكنات

ثلاثة ليالٍ بنهارهم أصارع الحمى

وذات ليلة من الليالي الثلاث رأيتني أهذي تحت وطأة الحمى وقد بلغت بي حالة من البؤس والتردي أحضرني الهذيان تلك الأبيات للمتنبي فهذيت :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

لكن حمتي كانت مقيمة عندي ليل نهار واستفحلت بمقامها وكان يختلف علي ساعات الليل والنهار دون وعيٍ مني

أتذكر أني رأيت كنت أذهب بتلقائية الحاة مع قدوم الليل إلى الصيدلي مع غياب نصف إدراكي

كانت الحمى في ليلي صورة أخرى من الاحتضار ؛ يكتمل غياب الوعي تماما ويرتعش الجسد وتأن الروح ويكثر الهذيان فرأيت الموت فعلاً!!

رحلت الحمى استأنفت العمل في الورشة مع زملائي الذين غابب سؤالهم عني وأنا في الحمى فتجاهلت معاتبتهم رغم امتعاضي وعتبي , وقد وعزت ذلك إلى أخلاق هذا العصر.

أنت وحيد في نفسك ؛ فلا تلم ..ولا تبكِ,ستبدو سخيفًا أن تريق عواطفك هكذا , استسلم كعادتك وفوض شائك إلى الامتعاض دون إبداء الغضب وكفى !

***

في أحد الأيام أشرقت الشمس بقدوم سيارتين نقل صغيرتين ووقفا أمام الورشة ومعهم جاء صاحب الورشة وأمرنا أن نحمّلهما بلاطا من الموضوع أمام الورشة وانتفضتن جميعًا لأمره وقمنا بتحميل البلاط على ظهر السيارتين وما انتهينا من التحميل أشار إلى وإلى اثنين آخرين كأنا قد قدما مع السيارتين أن نبقى مستعدين للرحيل مع الحمولتين ,لملت حاجياتي بعدما سألت أحد الذاهبين معي عن الرحلة الشاقة فأخبرني أن السيارتين ذاهبتين بحمولاتهما إلى مكان بعيد ونحن قد نعتكف هناك أياما في المكان البعيد

ركبنا على ظهر السيارتين , ركب الاثنان صحبة ظهر سيارة وحظيت أنا بظهر سيارة بمفردي ,دع أحد السائقين أن يربط علينا مع الحمولة تأمينًا علينا أن نتبعثر في الطريق أثنار ركض السيارة فرفض الاثنان الذين ركبوا معي وقالوا في ثقة هكذا :

_ توكل على الله يا أسطى العمر واحد والرب واحد

كنت وحدي على ظهر سيارة وشئت لو فعل السائق ما أراد وربط علينا مع الحمولة لكن الآخرين رفضا فلماذا قررا لي ولم يسألني السائق أكنت أريد ذلك أم لا ؟

شعرت بكره تجاه الجميع ولعنت في نفسي ثقتهم ووصفتهم بالحمقى وقعدت مضجرًا على ظهر الحمولة وأنا أرانا أقع وأتبعثر على الطريق أثناء ركض السيارة وتمنيت لو يكون أولئك مكاني وأنا أنظر إليهم بتشف وغيظ تحركت السيارتين واجتازت محيط الورشة وخرجتا من المدينة وسلكت طريق الأسفلت للمدينة بعدما عرجت عدة تعريجات لتخرج إليه ومنه تعريجات أخرى قبل أن تصافح إطاراتها غرة طريق فسيح يشق الصحراء بخط متوازي ذات أربع حارات

صحية في لحظة اقتربتا السيارتين من بعضهما سائلا :

_ ما هذا الطريق ؟

قالا :

_ إنه طريق الاقليمي الجديد

أمتزجت مسحة الشفق بوجه الرمال الرمال الاصفر فلم يختلف المشهد كثيرًا عن حقيقة السراب . كان المغيب يحدو بالسيارتين بحمولتيهما وأنا على ظهر السيارة ووجهي كان يقابل المغرب فكنت أودع النهارمقهورًا بين تلال الرمال وكسف الشفق , وحولت وجهي تجاه الشرق بعدما تلاشى أخر بقيا النهار وهطل الليل فلاحت في عيني بقع ضوئية كثيفة شامخة تتراء إلى من بعيد تقترب إلى أو تسحبني إليها

كنت أذكر في نفسي آنذاك لماذا يكون في هذه الطريق البعيد هذه الأضواء ؟

كشيء يشبه اللغز أو أنه لغز ...!

مع ركض السيارتين ومرور الوقت تباينت معالم الأضواء واتضحت حقيقتها , كانت بنايات سكنية متنوعة في قطع جغرافيا على شكل قرى ومدن قطعة من العمائر ذات الطوابق المتعددة وقطع من البنايات ذات الطابقين والثلاثة (فيلل وقصور) ذات الوجهات الفخمة محاطة بأسوار تمنع كل شيء عنها غير النظر من بعيد ظهرت تلك القطع السكنية متناثرة في رقعة الصحراء مثل بقع ملونة في صفحة رسم بيضاء لطفل عبث في رسمها فغاب التناسق وظهر لونها الفاحش

مررنا بأولها وكانت قطعة من الفيلل فرأت عيني إنجازا مِعْمَارِيًّا يضاهي الخيال ويسبق الزمن , من بعيد تكلمت الأضواء المطلة بخرافية المكان في بناءه وتشيده وتؤكد ملكيته لأناس ليسوا منّا على الإطلاق أو أننا لن نكون منهم البتة !

وحتى يمر الوقت مرتحلًا ومهزوما _مثل شيخ أنحى الظهر طرد من بيته من ابن عاق_ في عين شابٍّ سطا على الحياة ب رغبته وأمله في تحقيق طموحاته لكنها هزمته وغلبته وجعلته مقهورا غيبت في لجة الإحساس برغبة الاندهاش وأنا أتأمل في الفيلل والقصور وأنطفئ النهار تماما وقطعت السيارتين وهما يسلطان عيون ضوئية امامهما وقتا حتى اجتازت قطعة من تلك القطع الإنشائية الفخمة واختفت الصحراء تماما بعدما

انعطفت السيارتين في غفلة التأمل إلى إحدى القطع المبهرة في تكوينها وتصميمها المعماري

من بوابة مرقمة برقم(2) ولجت السيارتين إلى الداخل بعد فتشنا تفتيشًا جُمْرُكِيًّا واخذت منا البطاقات الشخصية , تحركت السيارتين عبر الطريق المؤدي لداخل القرية ببطئ يتماشى مع هدوء المكان توصية من حارس البوابة الذي اوصى السائقي بهذا وحثنا الانحدث همسًا

***

حتى نصل للمكان الذي نقصده داخل القرية حتى لا نتعرض للطرد ونسبب له إيذاء ومحاسبة قد يفقد معها وظيفته كحارس للبوابة

كنت أرى في المسليات الدرامية والأفلام فيللا وقصور في غاية الفخامة والبراعة في تكوينها لما تحتويه على تصميم وإبداع خرافي يدهش العقل والعين لكن أن ترى ذلك وَاقِعِيًّا فلا شك أنه سيولد داخلك شعور بالحقد والغبطة معًا فضلًا على أنك ستسحقر كل شيء ما عدا ما تراه عينك ومع تعمقنا في السير للداخل كانت تداعب أنفي رائحة زكية لم أشتمها من قبل رائحة تغلف جو المكان وقد أظنها في ركن ما لكن اتضح مع الوقت أنها رائحة الهواء الصناعية للمدينة

عن قريب ألقيت بعيني على وجه ماسي لبحيرة صناعية تقبع أمام قصر مشيد على الطراز الأندلسي الفاحش بالديكور المتنوع .امتزج من الزجاج الإيطالي والأحجار الغنية وفرائد الخشب وبعض مواد الدهانات المستوردة ,صرح:

صنعت يدُ الماهر من مهندس وصانع واجهة القصر أندلسية خالصة لتكون قطعة فردوس معمارية

كنت أتعجب لما جيء بهذا البلاط الشعبي الذي لا يتناسب البتة لهذه المدن الثرية الفخمة وقد صنعت شواطئ البحيرات من الجرانيت الماسي فضلا عن أرضيات القصور والفيلا التي لن تكون أقل تكلفة في التشطيب بل ستزيد كثيرا ,فلماذا هذا البلاط الشعبي الرخيص ؟

قضينا الليل في تعتيق الحمولات من على ظهر السيارتين ولم شيء مندوب الحمولة أن يدعنا نسترح من عناء السفر حتى الصباح وحثنا على مواصلة العمل بتنزل الحمولتين وامتثلنا على ممل وضجر وقمنا متسلحين بالمقت والامتعاض ننزل الحمولتين وما انتهينا وقد بلغ من التعب حد الكفر فارتمين مهدودين بجوار إطارات السيارتين ودقائق وصاح فينا المندوب وهو يحمل في يديه أكياسا أفرغها أمامنا بعدما تربعنا بجوار أحد السيارتين والتهمنا من لذيذ الطعام من لحم وسلطة وعيش وختمنا المائدة بمشروب غازيا تقرعنا على أثره كل ما فينا من تعب ورحلت السيارتين ومعهم المندوب بعدما أوصلنا لحجرة نبيت فيها ليلنا

نمنا في الحجرة دون إدراك أو تساؤل ماذا سنفعل في الغد وأنا بدوري لما ابتغي غير ذلك ,مكان ارتمي فيه نائما ونمت.

***

في ظهيرة اليوم الثاني كنت أجلس مع صاحب الحجرة وكان خفيرًا يحرس أحدى القطع التي مازالت قيد الانشاء فحللنا ضيوفا في حجرته توجيها من المقاول الذي جئنا له بالحمولات

كان صعيديًا خالصا يحترم العرف ويدين بالاصول وعلى وجهه شهامة أهل البلد , يرتدي الجلباب الفلاحي ويلف الشال على كتفه ,ينادى بـ(ابو جاسر) أمامه على ارضية الحجرة كان يضع غلاية الشاي على موقد غاز وانا كنت اتربع على سريره كأني صاحب المكان , صب لي قدحًا من الشاي وناولنيه, تلقيته منه بامتنان

_هكذا تشاء الأقدار أبا جاسر

أطفئ الموقد وتريث قبل أن يقول :

_ لنا الله يتم علينا ستره ويشملنا برضاه

أخذت أرتشف الشاي من القدح وأنا أجول بناظري في أركان حجرة أبي جاسر ,بتكويناتها البدئية البسيطة تقبع وسط مدينة من التحف المعمارية الزهيدة مثل بقعة زيت نتن في بساط مزركش وملون بالوان زاهية

الحجرة مطلية جدرانها الاربعة بالاشيء عرانيس الطوب تتخفى وراء ملابسه المعلقة على الحوائط والقفص الجريدي وتلك الصورة المحاطة باطار خشبي لطفل يبتسم لكن الابتسامة تظهر غير مكتملة , ملامحه توحي بشيء من تعاسة يعيشها ذلك الطفل الم يشوه ابتسامته أو شيئ من هذا القبيل

_ لم هذاه الصورة يا أبا جاسر ؟

نظر إلى الصور فلمحت في نظرته حنان يطلع من عينه , ورد :

_ إنها لطفل عندنا في البلد , وأحسست أنه يود الحديث أو القص لحكايته لكني وأدت هذا الود ووليته ظهري بوقفتي على باب الحجرة مازلت أرتشف الشاي الرائع وسلطت عيني على جنان القرية أتأمل فيها أكثر فجذب نظري من بعيد مشهد لأمرأة شابة تردي اللبس الرياضي وهي تروض كلبها في مرتفعات الجولف الخاصة محيط فيلتها ,تروضه وتلاعبه كأنه طفلها ,في يدها عصى الجولف والكلب يركض وراء الكرة

_ أين نكون يا أبا جاسر ؟

سألته وأنا مليئ بالدهشة من المكان وكلي حقد مزيج بغبطة مما تراه عيني , ضحك الرجل ملء فمه ,تركت المرأة وكلبها ونظرت إليه إثر ضحكته مقطبًا حاجبي متعجبًا !

رد :

_ تذهب لمكانٍ ولا تعرف أين ذاهب !

حيلت النظر حيث كان لم أجد المرأة وكلبها , وجلست مقرفصًا على عتبة اللباب وتنهدت قائلًا :

_ أنا أهب كثيرًا دون أن أدري ما ينتهي بي الذهاب وهززت رأسي فلم يفهم أبو جاسر ما أقصده أو أنه تجاهلني كما تجاهلته أنفًا وأجاب عن سؤالي :

_ أنت يا ولد عمي في المدينة الجديدة , ولا تقل أنك لا تعرفها

كيف لا أعرفها أيها الصعيدي المسكين قد أخبرني عنها العرّاف في نبوءته لكن العجيب أنه أخبر أن مثلي سيأتي إلى هنا كبقايا صيد لأحد ساكنيه من الأغنياء حين يغيرون علينا من حين لآخر ويجعلون من صيدنا تسلية

لروتين حياتهم المملة بكل متع الحياة ,وأخبر أيضًا أن أمثالنا من الشعب أن كان قدر له التواجد والعيش فيها لن يكون سوى خادم حقير لا أكثر , يحمل الحقائب أو ينظف روث كلابهم ولن نرتقي بالضرورة لأعمال نظافة نظافة أبدانهم لأنهم قد يخافون على كملابهم من عدوانا وأنت لن تعمل هنا خفيرًا أيها الرجل فالمدينة الجديدة تستورد خفراء وأمنيين من من الخارج كما تستورد كل شيء بعيد عنا وعن طبيعتنا .

ولكن هل خابت نبوءة العراف ؟أم أنها ليست يوتيوبياه المقصودة ؟

كل الدلالات تشير أنها هي ..ثمة علامات , جمال الطبيعة المدهش , تلك الروائع العطرية المغلفة لهواء المدينة الصناعي . الإبداع الخرافي لمساكن أهلها , اختيار الصفوة من تجار ورجال دولة وإعلاميين وغيرهم ممن لهم السلطة ليكونوا ساكنيها

لا أشك في نبوءة العراف ولا أن أنكر أنها هي تلك هي المدينة التي ستكون يوتيوبا , لكن لماذا أنا هنا وماذا جيء بذلك الباط الشعبي ,إنه لأمر محير , كدت أعبر عن حيرتي لأبي جاسر الصعيدي وأسأله لماذا هو هنا ؟ فأسمع زميلي وهو مقبل لاهثا يهرع تجاهنا ودخل الحجرة وهو ينتفض ويستغيث :

_ خبئوني , أريد خبأ أيها الرجل

قمت إليها من على عتبة اللباب وسألته ما حصل ؟ما هذه السرعة ؟

_ أريد مخبئا

نظرت لأبي جاسر الذي كان رابطًا جأشه لم يرعه مشهد صاحبي وهو مقبل بحالته ولم يهتم لاستغاثته فتعجبت من من أمره ولاحظ مني تعجبي , فأفصح قائلا :

_ أنك تظن أنهم سيجهلون حجرتي

سألت وزميلي مثل الديك الذي حصرته المرأة في العشة لتذبحه يصيح بالمخبء سألت من هم يا أبي جاسر ؟

أبو جاسر يرتب سريره المرتب ,يتظاهر بشيء أجهله وأنا أحاول تهدئة زميلي واسأله عما حصل؟

وفجاءة دون أن ندرك قدومهم داهموا الحجرة في مشهد مريب مقرع

***

قمت من على المقعد وقد جاء أكثر من قطار ورحل تفكرت وأنا أحك قدمي في أرضية المحطة الرخامية وأحمل على كتفي حقيبتي المهترئة ,حدثت نفسي لماذا لا أفعل شيئًا يرضيني؟

افعل شيئًا برغبتي ....

شيئا يعيد إليّ جزءًا من كينونتي

حقيقيتين ...

لماذا لا أكتب روايتي ؟

الحديث عن الذات تلك الرغبة الملحة أحيانا عندما تموت يائسًا ,ويا لها من من متعة تستوجب معها الفخر

السابقون من كتبوا عن أنفسهم حاولوا التخفي لكن فضحوا في نهاية الحديث ,فهل أفعل ما حاولوا فعله؟ أم أن سأخيب مثلهم ؟

خرجت من المحطة أبتاع قلما وقرطاسا وجلست على أمام المحطة بركن مشبع بعشب النجيل وبدأت أكتب

العالم من حولي مليء بالضجيج والفوضى وعليّ أن أخلق هدوءًا أطوق به فكرتي مثل ذلك الراهب يجعل من صومعته حماية له من مفاسد المجتمع وأضراره

رمسيس كانت البداية والنهاية

سلسة من الأحداث سأرويها على عجل لعلني ألحق بقطار أخر المساء لأعود لأهلي وأنا في قمة اليأس وخيبة الأمل!

عزمت في قراره نفسي ألا أبرح هذا المكان حتى أشبع رغبتي ,وأكتب ، وأكتب ... حتى أرضى

أبوح وأشتكي ....

أصارح وأبكي ...

أنهي روايتي

أكتب..

لم أملك خطة واضحة أسير عليها وما شئت ,فهل نحتاج خطة محكمة حتى تبوح بما في نفسك , تَبًّا لتلك الخطط إن عرقلت لنا رغبتنا ... سأترك لقلمي المجال ليفصح ويعبر بإرادته

فتحت الكراس وأمسكت بالقلم ؛

لأكتب..

النهاية

أذكر لكم أَنِّي عندما جلست على الأريكة في صالة دار النشر ورحت أقرأ في الرواية لم أنتبه إلا مؤخرًا قبل أن أنهض من مجلسي لتلك المزهرية الموضوعة أمامي على سطح المنضدة ذات الوجه الزجاجي واندمجت فرحًا في القراءة , اجتذبني لعالمها سِرّ لا يعلمه سواي , ولو سألتني كقارئ عن تقيمي للرواية باعتباري أجهل سرها لقلت إنها رواية عادية ضعيفة السرد منزوعة التشويق ,لكن سرها هو ما يشدني إليها , أعترف بدوري فيها , دور شئت به إشباع رغبتي في تمثيل أداء الكاتب , وإن كان كاتبًا ضعيفًا لا يرتقي أن يكتب على أسوار الخرائب .

إعادة ترتيب الأحداث والمشاهد قليلا فعلت ،وتسلطت أحيانا على السرد ،لكن دون المساس بالمضمون والمحتوى اللذين لا يخصاني البتة

أردت أن أجعل من العجوز العمياء بطلًا مِحْوَرِيًّا تلتف حولها المشاهد والأحداث مثلما تلتف شجرة اللوف على قامات النخل ،ووأدت تلك الإرادة خشية مني أن أحدث ما ينكره عليّ أصالة العمل ,فاكتفيت بها كما وجدتْ , وكان حري بِي أن أفعل , ألا أستحق التواجد وأن من أوجد هذه الرواية . لله دري ولأمانتي !

أقول لكم إني بحق أظن أن اللعبة الخيالية في الرواية تقلصت أدوارها ولإيكون هذا حدسًا مني إنما يرتقي ليقين مرجح , كل المشاهد والأحداث تشير لذلك .

واقعية المشاهد لها دلالات لا يسعني المقام لعرضها ؛ فأنا لا أضع الرواية تحت مجهر النقد وأنا لست ناقدًا بالمرة ،فلكم أن تظنوا ما اعتقده , وما عليّ ألا أعترف بحقيقتي معها , وحسبت أني سأواري لمساتي فيها حتى لا أصيبها بدواخل من عندي تفسد تماثلها ،وأن أقف عندها موقف الناقل أو الراوي ولا أدري ماذا أكون فعلت ؟

صوابية فعلي في العمل مع احتمالية الخلل هذا ما تحريت قدر الممكن , والأخطاء ستبدو من الوهلة الأولى واضحة , وبالتريث والنظر ستضح احتماليتها مثل حالة المزهرية الموضوعة على المنضدة أمامي ،بالنظر في شكلها تبدو متناسقة ،وورودها مرتبة بنظام جميل , لكن بالتعمق فيها بالتأمل، لا شك سترى عُيُوبًا مخلة بتناسقها ،وقد يشجعك الحماس باقتراح تعديل على ترتيبها ,هكذا الرواية.

في الحقيقة لا أحب إطالة الحديث هنا عما حدث وعن تجربتي مع الرواية واكتفي بالاختصار غرار نهج الرواية وترك الاغال في تفاصلي التي قد يراه منكم أنها مملة وغير منتفع بها ,لذلك أراني أن أتلاشى بتجربتي عن الرواية وأن اختفى بهذا القدر من تفاصيلي.

***

يدخل من الباب أربعة يتقدمهم ذو شأن وبنيان قوي ويلتقطوا زميلي بقسوة ويجرونه معهم دون أن يتفوه أحد منا بكلمة وسحبوه للخارج وسمعت رئيسهم يقول لزميلي في نبرة تهديدية :

_ أنتم ستروحون في داهية

ألجمتني الريبة ورهبة الموقف ورأيتهم وهم يجرون من الحجرة زميلي دون أية رد فعل مني وأبو جاسر الصعيدي , الغاية تبرر الوسيلة ,فماذا فعل ليجر هكذا ،بهذه الوسيلة؟

كنت مازلت أطرح على النفسي السؤال حتى قبضت يد أحدهم على عنقي بعنف وجروني معه

_ لماذا هذا ؟ ماذا حصل ؟

ولا تجيب غير تهديداتهم وهم يسحبوننا إلى العربة الملاكي التي زجونا بداخلها وانطلقت بنا خارج المدينة

لعلهم اكتشفوا أننا من الشعب وأننا هنا بالخطأ فأردوا أن يعاقبوننا على ذلك , قد يحرقوننا أو يصلبوننا على هياكل ويرموا بنا صبيان المدينة يجرموننا بعصا الجلف لأنهم بلا شك لن يجدوا الحجارة لانعدامها في مدينتهم، ولن نشعر حينها إلا بتأنيب الضمير لأننا أرتكب حماقة في حق أنفسنا

في أحد الأقسام الأمنية للعاصمة تم احتجازنا في الزنزانة وقد أُخذ منا متعلقاتنا.محفظتي وبها كل مالي أخذوها ،وقد كنت حريصا أن احتفظ بمالي داخل جيبي بعدما فقدته أول الأمر مع العترة) فلا أتحسر عليه مرةً أخرى لذلك جعلته في المحفظة وجعلت المحفظة في جيبي أينما أرحل . جردوني من متعلقاتي ،وأنا أنظر للمحفظة وقلبي فارغا ،لا أكاد أفعل بأمري غير الإزدياد خوفا

وفي الزنزانة رأيتني منبطحا بعد ترحيبهم الأمني البشع وساعات تمر ويأتي عسكري يفتح باب الزنزانة ويلتقطني من بين المساجين، وظننت أول الأمر أنه الإفراج لكن في حجرة خالية إلا من كرسي وطاولة جعلني العسكري أتمدد عليها قبل أن يقيدني من أطرافي على الطاولة ، ولم أشعر بشيء غير وجسدي ينتفض ويترجرج بعنف بعدما سلط عليّ رجل سمين بوجه فظع مخيف التيار الكهربي ,رحت اصرخ في البداية وراح السمين يزيد من شدة التيار وقضيت لحظات تحت تأثير التيار أتمنى الموت حتى غاب عني الشعور وانطفأت الدنيا في عيني تماما

عادي إلى وَعْي في الزنزانة , كنت مسجى على أرضها النتنة فتحت عيني رأيت الحائط ,

أستغرقت لحظات ليست بالقليلة حتى أستوعبت ما حدث لي.

أثارات التعذيب والألم البشع والرغبة في الصراخ أو التوسل للخروج من هذا الضيق ، لم أجد لذلك سبيلا فرحت أغافل نفسي بالتأمل في الفراغ القاتم ، أحد حوائط الزنزانة وكان عليه أثار دماء جافة ورسوما غير واضحة ،حدقت فيها كثيرا فبدت ليّ مألوفة, لم تكن واضحة ولم أكن في كامل عافيتي لاستوضحها بعيني لكني عملت النظر فيها بتمعن , حاولت النهوض واقفا لأراها عن قرب ,عبثًا حاولت ..وفشلت , كررت المحاولة في النهوض وزحزحت جسدي قليلا لكن قوتي كانت منعدمة فاستسلمت وتنفست بصعوبة ومر وقت قبل إعادة المحاولة للنهوض والوقوف على الحائط وبدأت أزحزح جسدي لأدنو من الحائط وكنت أحاول رغم ضعفي وتصدعي بسبب الكهرباء التي سلطت على أعصابي , جسدي كأن أرضية

الزنزانة ملتصقة به فتثقله عن الحركة ,أشعر بتعب نتيجة المحاولة ,تنفسي كنت أعاني عمليته,كأني في ركض مذ أيام لا أستطع النهوض .

تدحرجت إلى الحائط سمعت أنينًا ينبعث من مكان ما من الزنزانة وأصوات لأناس يثرثرون تجاهلت كل هذا وركزت على عملي

لامست الحائط بعد مقاومة لضعفي واستندت عليه براحتي واستجمعت ما تبقى من قوتي وقمت قليلا حتى كنت على ركبتيه ورحت على الحائط, فرحت بهذا كأني لامست الحجر الأسود عند الطواف ورحت انظر في الرسومات وأحاول قراءتها.

عشرة أيام قضيتها تحت التعذيب بالصعق الكهربي داخل الزنزانة , كأنهم أرادوا لي نزع ما تبقى داخلي من انتماء لهذا الوطن وهذه الحياة

كنت أشحن بالبعض والكراهية لكل ما هو غيري عند كل جلسة تعذيب , طاقة كبيرة من المقت والغضب متوفرة بسبب الكهرباء!

لم أفعل شيئًا غير حماية عقلي من الذهاب بعد انتهائهم من صعقي , فالجنون كان قريبًا منيّ نَفْسِيًّا وعصبيا

جَمَعْت هذه الكلمات وكانت متناثرة على الحائط بشكل مقصود ويبدو أن ناقشها كان لايريد أن يلاحظ تركيبها أحد من الجلادين.

ساعات طوال حتى جمعتها وقرأتها وقد أتساءل هل سأمكث هنا عشرة أيام تحت وطأة التعذيب بالصعق الكهربي ؟

من كتب هذه الكلمات ؟ ولماذا كتبها ؟

السجون مليئة بالظلم ومن تحت سياط الجلادين تخرج الحكم والنصائح من أفواه المظلومين ليدركها غيرهم ويثوروا على الظلم

في اليوم التالي مضى ولم أتلقى من الجلادين غير كسرتي خبز عند المساء وتفقدت زملائي الذين كانوا معي في المدينة الجديدة فلم أجدهم في الزنزانة وطلب من العسكري أن أعرض على التحقيق لأعرف سبب حبسي فزجرني قائلا:

_ أنت في ستروح في داهية بسبب فعلكم , فسألته :

_ماذا فعلنا, فلم يجب وعرضت في ظهيرة ثالث يوم على الكهرباء ونفس ذات الوجه البغيض سلط على التيار الكهربي وصرعت صراخًا حتى دخلت مرحلة متقدمة من الإغماء استفقت بعدها في ليل اليوم الرابع انتابني الغثيان والقيء في اليوم الرابع وتدهورت حالتي الصحية وكنت ملقى على أرضية الزنزانة مثل الدابة ... لا يقربني أحد

ورغم ذلك لم أكن أرحم من عرضي كل يوم على الصعق الكهربائي , لا أدري بأيامي حينها ولم أشعر بشيء غير الاحتضار البطيء الذي كان يرتفع عن عرضي على الصعق الكهربائي , وتلك اللقيمات التي كانت تلقي إليّ كانت تحفز القيء بعد الكهرباء

رائحتي كانت كريهة فاستخدموا المياه الساخنة كحيلة تتنظفي وتعذيب لي في آن واحد, وفي أحد المرات لم يذهبوا بِي إلى حجرة التعذيب المعتادة ووضعوني في صندوق مياه وقاموا بتوصيله لتيار الكهرباء داخل الزنزانة حتى أغمي عليّ كالعادة.

أيامًا قضيتها في الزنزانة وتحت سياط التعذيب لم تختلف كثيرًا عن أيامي التي عشتها خارجها , العذاب النفسي أشد إيلامًا من العذاب الجسدي وكلاهما منشأ للكفر

في ظهر أحد الأيام فتحت عيني فوجدتني حُرًّا طَلِيقًا في شوارع القاهرة بعدما أفرج عني من محبسي ولا أدري لماذا حبست تلك الأيام وما الذنب الذي اقترفته لأنال ذلك العذاب كله ؟!

كنت أمشي في الشوارع دون هداية أو مقصد وارى الناس وهم يلقون إليّ بالنظر وفي نظراتهم مزيج من الشفقة والاحتقار

لم أتبين أي يوم هذا أو أي وقت ذاك ! حتى سألت أحدهم وأخبرني باليوم الثلاثاء والساعة الواحدة ظهرًا أنا في باب الخلق

من باب الخلق لمنطقة وسط البلد ولن أرهقكم أكثر بالتفاصيل فأنا أشعر أنا أناملي ستتوقف من استمرار التدوين في الكراس لكن دعوني أخبركم أنها كانت رحلة مهينة قطعتها عبر أتوبيس النقل العام وهناك في وسط البلد اتخذت من مكان ينزوي عن الأعين ملجئًا ليّ.

أذكر لكم عندما وصلت لهذا الحد من القراءة في الرواية وتحديدًا عند ذلك الجزء، قدومه لمنطقة وسط البلدة أخذني الحنين وكأني سمعت صوتًا في داخلي يناديني أن أذهب إلى هناك , الصورة لم تكتمل بعد في مخيلتي ومازال هناك أسرار لم أفصح عنها حتى لذاتي

طويت الرواية عند تلك الصفحة ونزلت المصعد وأمام البناية كانت تنتظرني برفاهية تكوينها فتحت الباب بعدما تغطت على زر الريموت فأحدثت صوتًا وأنا أقترب منها

ركبت سيارتي (الكيا جراند) ذات اللون الأحمر واتجهت لهناك وابتسامة رضا وامتنان مرتسمة على وجهي أراها من خلال مرآة السيارة الداخلية.

****

في زاوية بجوار سور عتيق لساحة تقف فيها السيارات اتخذتها مسكني أنام فيها ليلي وأنا ألف نفسي بخرقة عثرت عليها في أحد الخرائب وأنا أتجول في الشوارع

أثار الصعق بالكهرباء جعلني كالمجنون لا أدرك كثيرًا من واقعي ,فكنت أتسول أحيانًا وأبحث في الأركان عن بقايا طعام لأطعمه , وكثيرًا كنت أفعل وأياما مرت دون إحساس أو شعور بحالتي المزرية والتحقت بالمتسولين وعرفت منها أناسًا , وعلمني بعضهم حرفة التسول من المارة شرط أن اجتزأ مما أحصل عليه وأعطيه له فوافقت وجمعت مالًا يكفي ولأني كنت أفعل التسول برغبة اضطرارية لم أكن ماهرًا، فلم أجمع من النقود غير ما يكفيني اشتريت غِطَاءَا ووسادة ومازلت في تلك الرواية ومر شهر على هذه الحال أخرج للتسول وأعود في الليل وقد يأخذني الترف أحيانًا وأتمشى على شاطئ النيل أشتم هواء القاهرة المزدحم

كنت أستغل فراغي بعدما أكتفي من التسول وأكتشف أسرار القاهرة , رأيت القاهرة ليلا كأنها ملهاة ورأيتها نهارًا كأنها مصلحة حكومية .

تتابعت الأيام عليّ متشردًا أخذ كفافي من الطعام بالتسول والالتقاط وأنقب في يومي عن إفرازات الحياة المستقرة فلا أعثر إلا على الضياع يطل بعيون الصرع والجنون فأرتمي بجوار السور النتن نائما في الليل ومتشردا بالنهار.

بلغت الشمس ذروتها في عنان السماء واكتوى جسد الدنيا بحرارتها اللاسعة , فتحت عنيني في تأذٍّ من حرارتها واعتدلت في ملل وضعف من رقدتي قاعدًا مستندًا ظهري على الجدار النتن خلفي ودعكت عيني بظهر كفي متثائبا كل تعب الدنيا , متأففًا من رائحة ذلك العرق السائل والجاف على سائر جسدي ، ككسرة خبز عفنة تغطيها البكتريا الجافة ... نهضت واقفًا بنفس الملل والضعف ومشيت خطوات، وتذكرت حذائي فتلفت يمينة ويسرة وألف حول نفسي أبحث عنه وشعرت بحمل على عنقي فتذكرت أنه الحذاء ففككت ربطه عن عنقي ووضعته في قدمي وأكملت سيري

في العامين الآخرين قصدت لجنة من علماء الاجتماع الألمان وسط البلد يبحثون عنّا

كان نشاط اللجنة وهدفها البحث في شوارع القاهر عن هؤلاء المتشردين وعمل دراسة تحليلية ميدانية لأوضاعهم وأسباب تشردهم

مثل ما كنا نسمع في عالم الحيوان والأفلام الوثائقية , لجنة من الباحثين تتجول في أحد الغابات للعثور على كائن معين حيوان كان أو طائر أو حتى حشرة نادرة الصنف يتصادونها لعمل بحث على نوعها

لذلك اللجنة لم تكن تعمد في بحثها ودراستها على كل المتشردين ،إنما على فئة بعينها ، الفئة التي أظنني _بحالي هذا _ أنتمي إليها ، فئة الدخلاء , هكذا يسمونها ؛ لأن الأشخاص التي تخصهم هذه الدراسة يكونون من أصحاب الحظ التعس ، أو بمعنى ليسوا متشردين بالفطرة أو اتخذوا

التشرد سبيل لحياتهم بل أجبرتهم ظروفهم عليه ,وهم في عالم التشرد غرباء , ويكونون منضمين حديثا لهذا العالم الذي صار يتسع في مصر في الاعومة الماضية

قد تسألني غاضبًا : هل أحد يختار التشرد.

دعني أخبرك أني لا أدري ؛ ففترة تشردي لم تكن كافيًا للإلمام بعالم التشرد وتفاصيله ، كما أنني لم أعد نفسي يومًا متشردا ، لكن على أي حال كانت هذه صفات من تقصدهم اللجنة لعمل لقاء معهم ووضعهم تحت مجهر الدراسةوالسؤال ، فانتخبت نفسي لهذه المهمة.

كل ما عليّ أن أذهب لأحد ميادين وسط البلد التحرير ، أو سافنكس أو أية ساحة وأخذ موضعي كمتشرد في ركن من أركانها وهم بدورهم يختارون عينة من اَلْمُقِلِّينَ على الرصيف مثلي من المتشردين بعد التأكد أنهم من عينة الدخلاء.

ليس لأنني كنت أطلع في الماضي لعمل لقاءات صحفية أو أن بقايا نزعة حب الظهور مازلت بدخلي . كنت أرغب أن تأخذني اللجنة ،إنما كنت أطمع لهذه الجنيهات التي تخرج من جيوب اللجنة دولارات لكنها حتى تصل لايدي المتشردين تستحيل لجنيهات مصرية مهترئة تحمل رائحة جشع واختلاس الجانب المصري ، اللجنة تعطي مكافئة بعد الدراسة التي تستغرق يومين.

جنيهات قد تساعدني، لكني ذهبت ولم أعثر عليهم، أو أنهم أخذوا غيري أو أن اللجنة المصرية المساعدة استنفدت منها كل الدولارات

ظهرت الحشرة لكن الصياد لم يأت !!

تكرر عملي هذا لأيام متتالية ، أنهض من فراشي الوثير المصنوع في مصنع خيالي الجامح ،أدعك عيني بملل وأهرش رأسي ، أتأفف من رائحة العرق التي تزداد يوما بعد يوم.

أفك حذائي المهترئ واضعه في رجلي واسعي في ميادين القاهرة وأثناء اليوم التقط أي فتات من أي كومة قمامة بها فضلات أكل ألقى به في بئر معدتي العميق جوعًا

يأست اصطيادي من قبل اللجنة فأخذت أجرّ قدمي شبه الحافيتين لاهتراء هذا النعل اللعين الذي لم يمضي عليه غير عامين ، واتجهت صوب كورنيش النيل لأنحني قليلا على السور الحديدي المطل على النيل لأكتشف هذا السحر العائم على أمواجه الهادئة ، وارى تلك الروعة المرتسمة على صفحته. هكذا كنت أسمع في الأغاني والحكايات وقت ما كان عندي يوتيوب

أن ترى متشردًا يتأمل النيل فتلك هي الرواعة والسحر الحقيقي. لم أنحن على السور وظللت شامخا على وضعي واقفا بانتصاب القامة مسافة مترين عن السور أحدق في مياه هذا النيل الحالم وقلت لنفسي :

ماذا تعني تلك المقولة إن مصر هبة النيل ؟

تفكرت في استبيان ...

ولأنني لست ممن يتفلسفون من أجل التفلسف ،أو يعطون إجابات مقتضبة أخذني الوقت في التفكر..

ورأيت زورق نيلي يتلاعب أمامي في النيل في مشهد استعراضي متكرر على مثل هذا الشواطئ, لاسيما بالليل , لمحت في الزورق ثلاثة ,قائد الزورق

وشاب مغرور يضم بجواره فتاه شبه مؤدبة , الزورق في النيل كسيارة لعبة في يدي طفل يحركها ذات اليمين وذات الشمال

لعل فتاة الزورق تكون هي الهبة المقصودة.

ألا يمل هؤلاء المتنطعون من شعاراتهم السخيفةالواهنة !

كيف يكون لهذا النيل الذي تلعب فيه هبة بالزورق شرف وهو يشق مصر من أولها لأخرها ، وقد تركني أعاني العطش يومًا كاملا ولم أجد الماء اشربه وبلغ بي العطش مبلغه

خدعوا هذا النيل الحالم مثلما أنا خدعت وأظن أن ينتهي به الحال إلى التشرد مثلي

يئست اكتشاف سحر وروعة النيل .تَبًّا لحكايات الأطفال التي تَرَبَّيْنَا عليها !

الوقت لا يسمح للتجربة والحاضر يلعن مرات كل لحظة يتأخر فيها ، أظنني في بداية مرحلة الجنون

هل يسعني الوقت للانتقال الحر من التشرد للجنون !!

إنها التجربة ... فعلًا

ما جدوى أن تضفي لونًا فُسْفُورِيًّا على صورة بهتت وتلاشت ملامحها ، ما الفائدة ...!

محاولات عبثية ...

الأجدر بك أن ترسم صورة غير التي بهتت ، ولا أظنك تستطيع ؛فالوقت مضى...

ما هذه الوسوسة التي تنخر في تلافيف رأسي عند كل ضيق !

أعود إلى أهلي ....

قلت إنها فكرة مبتذلة .... سخيفة

أنا لست مؤهلًا بحالتي هذه للعودة

ومتى كنت مؤهلًا لأي شيء ؟

متى؟

من سيئ لأسوء ومازلت تنتظر فرصة أفضل لكنك بهت في محطة الانتظار , فماذا عساي أفعل ؟

إعادة ترتيب الذات ، وخلق فرصة أخرى للحياة

لن تفلح في إحياء تلك النفس التي ماتت من قبل ألف مرة وتحللت في تربة الضياع

ألإستسلام الاختياري

علامَ تحزن !

ألم تكن حياتك كلها مجرد سلسلة من الاستسلامات ؟

إتسلام تلو الاستسلام

تلو الاستسلام

كم مرة استسلمت فيها وأنت مصرّ على ألا تعاود كرة الاستسلام .لكن في النهاية.

..

تستسلم !

وتعلن ضعفك

معركة الحياة لا تكون سهلة على هؤلاء الذين لم يحالفهم الحظ وتعنتت لهم الأقدار

نظل نتصدى لها ونقاوم ضرباتها المتعاقبة والمتلاحقة بشكل مستفز ، لكن يأتي المجهول ويقضي علينا بضربته القاصية
وتسمى القاضية
فنستسلم الاستسلام التام.

***

ركبت سيارتي (الكيا جراند) ذات اللون الأحمر المحبب لدي واتجهت لهناك وابتسامة رضا وامتنان مرتسمة على وجهي أراها من خلال مرآة السيارة الداخلية.
ولأن وسط البلد يكون مزدحما بالمارة والسيارات انتحيت بسيارتي ركنًا هناك عند مسجد الفتح وأوقفتها هناك وترجلت من عند المسجد حتى وصلت للمكان الذي جذبني إليه الحنين
جلست على ركبتي ونظرت بجوار السياج الحديدي ,راجعت بالذاكرة للوراء , ليس للوراء كثيرًا , لعامين مضوا ,والمشهد الأول يحتل جزءًا وفيرًا من التفكير ,تنفعل معه العاطفة وتثور معه النفس بالتساؤلات العديدة .
من يكون صاحب هذه الكلمات ذات البوح الحزين ؟
هل عاش فِعْلِيًّا تلك الأحداث؟
مر بتلك الظروف والأزمات؟
أم أنه أنتحل تلك الأوجاع وتخيلها ؟
هل ألقى بهذا الكراس عمدًا هكذا أم سقطت منه سهوًا هنا ؟

في هذا المكان عثرت على كراس كبير ملقى بجواره قلم, كأنهما سقطا من صاحبهما دون أن يدري . فضولي جعلني امسك بالكراس وأفتحه وتشجعت لأقرأ ما فيه بعدما وجدت في الصفحة هذا العنوان(نقوش على جدران الحياة)

تمت بفضل الله

2019/10/20

نبذة عن المؤلف

علي عمار السعيد

-مصر_ الجيزة

أعمال سابقة:

- هجرة إلى موت _رواية _بمعرض القاهرة 2018